كوبر

ذكريات معتقل في سجون السودان

د. محمد سعيد القدال

كوبر

ذكريات معتقل سياسى

فى سجون السودان

د. محمد سعيد القدال

الطبعة الأولى
القاهرة
١٩٩٨

الشركة العالمية للطباعة والنشر
الخرطوم - السودان
عمارة - الإمارات

الإهداء

إلى أمي زينب

وزوجتي فاطمة

وعبرهما إلي أمهات وزوجات الشهداء

والمعتقلين فقد وقع عليهن عبء تلك

السنوات العجاف. فحملنه بجلد.

(١) تقـــــــــديم

هذه ذكريات وليست مذكرات. وقد انقضى عليها قرابـة ربـع قـرن مـن الزمان. وعندما كنا فى سجن كوبر العمومي كان المعتقلون يرددون قـائلين ' أيام تتعدى وتبقى حكاوى ". وهذه بعض حكاياتها. وقد اعتمـدت فيـها علـى الذاكرة. والغرض من كتابة هذه الذكريات أن اسجل جانبا من فترة لها أهميتـها فى مجرى الصراع السياسى فى السودان. ولعل هذا التسجيل يسـتنفر اولئـك الذين عاشوا التجربة بعمق أكثر من معايشتى لها ويكتبون عنها، ويتخلون عـن التواضع ونكران الذات، فهذا تراث ومن حق الأجيال القادمة أن تقف عليه لعلـه يثرى لها جانبا من حياتها. وعندما يحين الوقت لكتابة تـاريخ الاعتقـال فـى السودان تصبح مثل هذه الذكريات مادة لكتابة ذلك التاريخ. ولا شك أن الكتيبين اللذين نشرهما مبارك أحمد صالح المحامى وعوض الصافى بعد انتفاضه أبريـل ١٩٨٥م قد حازا قصب السبق فى مضمار ذكريات الاعتقال.

ومن أهداف هذه الذكريات أن تقدم وثيقة إدانة تاريخية لنظام جعفر نمـيرى، تختلف عن الإدانة فى ساحة القضاء بعد أن تخطتها الأحداث أو إعادة محاكمـة نميرى بعد أن أصبح جثة سياسية. إن الأمر الأهم هو كشف المنهج الذى تمـت به ممارسة الحكم خلال ستة عشر عاما. لقد كانت الاعتقـالات وفتـح أبـواب السجون لزج المعارضين دون رقيب أو مساءلة قانونية ، أكـثر جوانـب ذلـك المنهج ظلاما. وكانت تلك الاعتقالات خروجا على الأعراف والتقاليد التى سار على هديها الصراع السياسى فى السودان الحديث حتـى علـى عـهد الحكـم الاستعمارى البريطانى، حتى بلغت على تلك الأيام قمة العنف السياسـى. وتـم تجاوز حكم القانون بأسلوب همجى فتح الباب على مصراعيه أمام قوى سياسـية أخرى متخطية له فى الدرجة وليس فى النوع.

وقد اعتمدت فى هذه الذكريات على تجربتى الشخصية لحـد كبـير. رغـم تواضعها إذا ما قيست بتجارب بعض الذين قضوا سـنوات متواصلـة خلـف القضبان. وحاولت أن أعكس من خلال التجربة الشخصية الجوانب التى تشـكل نمطا عاما ينطبق على كثيرين غيرى. وأبرزت الجوانب المرحـة فـى تلـك التجربة، لأن المرح بحق هو الذى أفرد ظله عليها وأخرج النـاس مـن كآبـة السجن وسطوته. ولا يعنى ذلك المرح أن الناس كانوا فى مسـرحية هزليـة. ولكنهم كانوا يرتفعون بهاماتهم وقاماتهم فوق العنت بالسخرية الهازلة والـهزل الساخر.

وتنقسم هذه الذكريات إلى خمسة عشر جزءا وتقع تلك الأجزاء في خمسة أقسام رئيسية ، أولها التجربة الأولى (الجزئين الأول والثانى) . والقسم الثانى عن فترة الاعتقال الأساسية من ٢٢ يوليو ١٩٧١م حتى مايو ١٩٧٣م (الأجزاء من الثالث حتى الحادى عشر). والأجزاء الثلاثة الأخيرة كل واحد منها عن فترة من الاعتقال فى الأعوام ١٩٧٦،١٩٧٩، ١٩٨١ ، وأفردت جزءا خاصا (الحادى عشر) عن الشاعر محجوب شريف وأسميته "كروان السجن الصداح". وقد استحق إفراد جزء خاص به لقدراته الإبداعية المتميزة. وتناولت فى الجزء الأخير بعض دروس السجن وعبره .

وفى صيف عام ١٩٩٤م كنت فى القاهرة، وقابلت بعض الأصدقاء الذين عاشوا تجربة الاعتقال بالذات بعد ٢٢ يوليو. وعرضت عليهم هذه الذكريات لأستنير بآرائهم وأستزيد من خبراتهم. وكانت إضافتهم إثراء لهذه الذكريات. فجاءت مساهمة عبدالقادر الرفاعي غنية، فقد عاش فى كوبر وفى قسم "السراية" فترة طويلة. وأبرز جوانب هامة غابت عني. وكانت مساهمته فى الجانب الثقافى والأدبى متميزة فهو مولع به. وقد ضمنت كل ما كتبه وأشرت إلى بعضه باسمه، ولم اشر إلى البعض الآخر فى حواشى وهوامش حتى لا أثقل الذكريات بأعباء أكاديمية فوق طاقتها. وقدم الفنان محمد وردى إضافات هامة بالذات فى ما يخص تنظيم " الفنانين الاشتراكين " وعلاقته مع الشاعر محجو شريف ، وقد أثبتها بنصها.وأمدني دكتور فاروق محمد ابراهيم/الأستاذ علي سعيد بملاحظات هامة تخص الفترة الأولى من الاعتقال فى يوليو ١٩٧١. وأضاف محمد عبدالغفار "شيخ العرب" أحداثا فات عليّ ذكرها. وأثرى دكتور الشفيع خضر هذه الذكريات ببعض تجاربه الغنية، بالذات فى مجال العلاج. وأمدنى دكتور محمد سليمان بملاحظات لها أهميتها. أما دكتور عبدالسلام نورالدين فقد قرأ المذكرات، ورغم انه لم يعش فترة الاعتقال, إلا أن ملاحظاته من الخارج كانت قيمة. ولكل هؤلاء الأصدقاء خالص شكرى وتقديرى. فقد غطوا جوانب هامة، ولكن مازالت هناك فجوات تحتاج لمن يتولى أمرها. وتولى الأستاذ مبارك حسن الخليفة مراجعة المسودة بحذقه المعهود . وشكرى للابنة إقبال كرار وزوجها عمر عمرابى لما تكبداه من مشاق لطباعة النص على الكمبيوتر ، فاختصرا طريقا طويلا بجهدهما •وشكرى لزوجتى التى تكبدت الاستماع لهذه المذكرات أثناء كتابتها ونحن نعيش فترة اغتراب موحشة فأسرجت دجى ليلنا. وإذا كان فى هذه الذكريات قصور فهو قصورى.

المكلا - حضرموت - اكتوبر / ١٩٩٥

(١) الصدمة الأولى

اتخذ سجن "كوبر" العمومي فى الخرطوم بحري اسمه من أول مدير بريطاني له وهو مستر كوبر "COOPER" ثم خفف الاسم وأصبح ينطـق "KOBAR" ثـم تطور الأمر وأصبح الاسم يطلق على السجن وعلى حي سكنى بأكمله. وهكـذا تحول مستر كوبر من جلاد إلى اسم يتداوله الناس دون أن يحفلوا بجذوره

والسجن إسم له وقع غريب وأحيانا مخيف. وغالبا ما يكون ذلك الوقع بعيدا عن المناخ النفسي والذهني لشخص لم يخطر بباله أنه سيدخله في يوم مـن الأيـام. ويرتبط ذكر السجن أيضا بمشاعر بطولية رومانسية عن الأبطال الذين صـبروا وصابروا خلف أسواره دفاعا عن ما آمنوا به من مبـادئ. ومـا زال سـقوط الباستيل العاصف عام ١٧٨٩ يقرع مسامع عصرنا. وستبقى أسـماء سـجناء الرأي معالم شامخة في تاريخ الإنسان، وتتألق من تلك الأسماء: أنطوان قرامشى وإرنست تيلمان وجورجى ديمتروف ونلسون منديلا .

ولكن مواجهة دخول السجن للمرة الأولى أمر مختلـف. فقـد تتلاشـى مشاعر البطولة الرومانسية وتحل محلها الرهبة والخوف. ولن يجد الإنسان مـا يثبت أقدامه سوى أن يجمع أ شتات شجاعته ويشرئب نحو الأمل الذى يتمنـى ألا تطول فترة مخاضه.

وللسجن السياسي في السودان الحديث تاريخ . ولعله بدأ منذ حكم الخليفة عبد الله التعايشى (١٨٨٥ – ١٨٩٨) عندما زج بمخالفيه فى الرأي من علمـاء دين وقادة عسكريين وسياسيين فى سجن "الساير" فى أم درمان أو نفاهم إلى " الرجاف " فى جنوب البلاد . وقام الحكم الاسـتعمارى البريطـانى (١٨٩٨ – ١٩٥٥) ببناء سجن "كوبر" الذى أصبح مأوى للسجناء السياسيين بـالذات ثـوار ١٩٢٤. ثم أخذ يستقبل المناضلين ضد ذلك الحكم. وبعد اسـتقلال السـودان استمر سجن كوبر يستقبل المناضلين من عمال وسياسيين وطلاب. ولكن رغـم كل ذلك يبقى اسم السجن له معان بعيدة عن لغة الإنسان العادي.

وكانت أول تجربة لى مع السجن فـى أواخـر يونيـو ١٩٧١. ولتلـك التجربة خلفيتها السياسية التى تناولتها فى كتابى " الحزب الشـيوعي السـودانى وانقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩م " الذى نشرته فى عام ١٩٨٦. ولا بأس مـن ذكـر معالم ذلك الصراع .

فى صباح يوم ٢٥ مايو وقع انقلاب عسكري بقيادة جعفر نميري، وفـــى نفــس اليوم أصدر الحزب الشيوعي بيانا باسم لجنته المركزية وصف فيه ما حدث بأنه انقلاب وليس ثورة. ودعا إلى توفر شروط معينة حتى يتحول الانقــلاب إلــى ثورة. ورغم أن البيان أيد انتقال السلطة من الأحزاب إلى الجيش، إلا أن منهجه العام لم يلق قبولا من قادة الانقلاب ومن بعض قادة وأعضاء الحزب الشــيوعي. وتفجرت معركة سياسية بين الحزب الشيوعي والسلطة الجديدة، وتفجرت داخــل الحزب الشيوعى. وحدثت مواجهات سياسية بلغت إحدى قممـــها فـــى إبريــل ١٩٧٠ عندما اعتقل عبدالخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي ونفـــي إلـــى مصر. وعاد عبدالخالق من منفاه ليقود الصراع فى المؤتمر التداولي للحـــزب الذى انعقد فى أغسطس ١٩٧٠. وكان بالمؤتمر تياران أحدهما يقوده عبدالخالق والآخر بقيادة عمر مصطفى ومعاوية إبراهيم. وخرج المؤتمر بتوصيات تؤيــد عبدالخالق وجماعته. وبعدها انشق الحزب. فكونت مجموعة من اثني عشـــر عضوا من اللجنة المركزية حزبا آخر.

وتواصل الصراع بشكل أعنف وبلغ إحدى ذراه الساخنة فى نوفمبر عندمـــا تــم إعفاء ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة لارتباطــهم بـــالحزب الشـــيوعي أو لميولهم معه وهم المقدم بابكر النور والرائدان فاروق حمدالله وهاشم العطا وهــم من أقوى أعضاء المجلس. واعتقل عبدالخالق فى ظهر نفس اليوم ووضع فـــى زنزانة رطبة فى المنطقة العسكرية فى أم درمان ، فأصيب بالتهاب حـــاد فـــى صدره . وزاره المقدم طبيب عبد الرحمن الدرديري وأصر على نقله إلى مكـــان أفضل ، وإلا سوف يعلن عن حالته . والدكتور عبده خالى وصديق عمري منـــذ الطفولة ، وكان شجاع القلب . وبناء إلى ذلك نقل عبد الخالق إلى مصنع الذخيرة العسكرى فى الخرطوم. وبدأ اعتقال الكوادر النشطة فى الحزب الشيوعى فـــى مختلف مدن السودان.

وفى الأسبوع الأخير من يونيو ١٩٧١ تم تهريب عبدالخالق من معتقلـــه الحربي. وكانت عملية التهريب دقيقة وجريئة أفزعت نميرى وســلطته. وقــد وصفها " الكودة " وهو صف ضابط من كوادر الحزب الشيوعى العسكرية التـــى شاركت فى العملية. وصدر كتابه عام ١٩٩١ بعد سنوات من انفصالـــه عــن الحزب الشيوعي. وجاء وصفه مفصلا ووافيا. ولكن هناك نواقص وعيوب فى الكتاب ليس هذا مجال الحديث عنها .

وكان رد فعل السلطة إزاء الهروب المزيد من الاعتقالات لكوادر الحزب الشيوعي، بالذات الذين لهم صلة مع عبدالخالق ويؤيدون موقفه السياسي. فاعتقل أصدقاؤه والعناصر التي تعتقد السلطة أنها ربما تساعد على إخفائه. وتركزت كل الاعتقالات في منطقة الخرطوم.

وفي الثامن والعشرين من يونيو ركبت القطار مع أسرتي في طريقنا إلى كسلا لقضاء العطلة الصيفية مع الأهل. ووصلناها في اليوم التالي. وفي المساء ذهبت إلى منزل خالي عوض حيث يجتمع فيه بعض الأصدقاء. وفي التاسعة ليلا عدت إلى المنزل. فأخبرني والدي أن بعض رجال الأمن جاءوا وسألوا عني ووعدوا بالعودة في الصباح. وكنت أجهل تماما مرامي تلك الزيارة وفسرتها بحسن نية على أنها مجرد إجراء أمني عابر. وبينما كنت أتحدث مع زوجتي حول احتمالات اعتقالي وما يجب علينا أن نتدبره من أمرنا، إذا بي أسمع طرقا بالباب الخارجي. فانتفضت منزعجا وخشيت أن يكون رجال الأمن قد عجلوا من أمرهم وفضلوا لقائي في ذلك الليل البهيم. وهو بهيم بحق بالنسبة لمدينة كسلا التي يهجع أهلها في العاشرة.

وعندما فتحت الباب التقاني رجال الأمن وطلبوا أن أرافقهم إلى مركز الشرطة. فقلت لهم بسذاجة الشخص الذي لم يألف الاعتقال بأنني أفضل مقابلتهم في الصباح. فأكدوا أن الأمر لا يحتمل الانتظار. وكان والدي بجانبي وأصر أن يرافقني شأنه شأن الآباء عندما يتعرض أبناؤهم لمثل هذا الموقف وعندما رجوته أن لا يرافقني لأن في ذلك إزعاجا له، انتهرني وقال كيف يتركني أذهب دون أن يعلم أين سيكون مستقري. وشعرت بحرج أن أكبّد والدي الذي بلغ السبعين من عمره مشقة الخروج ليلا وركوب " كومر " البوليس. ولعل رجال الأمن كانوا أيضا في حرج. فقد كان والدي رئيس المجلس البلدي وله مكانة مرموقة في المدينة.

وفي مركز الشرطة استقبلنا الضابط بترحاب وقال كان المفروض أن يتم اعتقالي هنا في حراسة الشرطة، ولكنه مكان غير لائق ويعج بالمجرمين، وفضلوا أن يحتجزوني في السجن الخاص برجال الشرطة. وذلك السجن عبارة عن ثلاث زنازين في معسكر الشرطة في أقصى الطرف الشرقي من المدينة. وأصرّ والدي أن يحضر لي فراشا من المنزل ورافقني حتى ذلك السجن. وهناك زجّوا بي في إحدى الزنازين.

وكانت الزنزانة صغيرة جدا وجوها خانق. فقد كان الوقت في قمة الصيف. فطلبت من الحارس أن يسمح لي بالنوم في الخارج، فرفض. ولعله أدرك أنه يتعامل مع شخص يحسب نفسه في رحلة وليس رهن الاعتقال. وعندما أغلق عليّ باب الزنزانة أدركت المعنى الحقيقي للسجن للمرة الأولى. ولكن سرعان ما صرفت عن نفسي هول الفكرة ورحت في نوم عميق.

وفي الساعات الأولى من الفجر أفقت على أصوات تتهامس ورائحة كريهة تزكم أنفي. فقلت لعل هذه بعض طقوس السجون. وجلست في حيرة حتى غلبني النوم مرة ثانية. وفي اليوم التالي علمت أن الزنزانة المجاورة بها جندي من الشرطة مصاب باضطراب نفسي، وأن أهله أحضروا له "بخرة" من رجل صالح وأحرقوها وبخروه بها لتزيل عنه الأذى النفسي. وكانت الرائحة الكريهة هي رائحة البخرة.

وأفقت من النوم في السادسة صباحا على صوت والدي. وكان متعجبا من نومي في تلك الحالة المزرية، وقال " أنت قلبك ميت". فقلت له إن النوم هو الشيء الوحيد الذي كان متاحا لي. وكان يحمل الشاي والقهوة و"لقيمات" والتي أهوى أكلها. وظللت أذكر مشهد والدي ذاك دوما. فقد كان قلقا عليّ، فتلك أول تجربة اعتقال تشهدها الأسرة. وكانت عواطفه الأبوية جياشة وإن لم يفصح عنها. ولكن حمله الشاي والقهوة في السادسة صباحا عبّر عنها كأعمق ما يكون التعبير. وبعد وفاته كانت تعبر بخاطري تلك الصورة فأذرف دمعات حنان ومودة له. وكان يخفي بين أدوات الشاي علبتين من السجائر. فهو يعرف أني أدخن، ولكنه لا يريد أن يظهر علمه بذلك. بيد أن السجائر كان ضرورة في ذلك الظرف. وكانت تلك لفتة أخرى زادت إكباري له.

ولم تمض ساعات حتى جاء يحمل طعام الإفطار و"عنقريبا" صغيرا تتسع له الزنزانة. وحمل بعض الكتب وراديو. وكنا ننظر إلى بعض ولا نتكلم كثيرا. فقد كان في أعماقه معجبا ممّا أبديته من رباطة جأش وفي ظاهرة محتجا. وكنت أدرك تلك المشاعر. وظلت انفعالاتنا تتواصل عبر خيوط غير مرئية نستشعرها ولا نفصح عنها. وكانت مواقفه تلك من الأسس التي ثبت فوقها أقدامي.

ثم أخذ أصدقائي يتقاطرون على الزنزانة بعد أن يحصلوا على تصريح من مدير الشرطة. ولم يكن في استطاعة المدير أن يرفض طلبهم فأغلبهم من معارفه ومن الشخصيات المرموقة في المدينة. وبدأت أتوهم أني أحتل وضعا

بطوليا. ورحت أبعث إلى والدى برسائل عن الصمود وعن الانتصار الآتـــى. ويبدو أنه قد ركبتنى موجة من الأحاسيس الرومانسية البطولية. فتخيلت أنى فى طريقى لأصبح زعيما بعد ساعات من الاعتقال. على أن زيارات الأصدقاء من العوامل التى ساعدتنى على الصمود، وخصوصا وأن بعضهم كان يحمل الكتب والسجائر، وكان السجائر أحسنها وقعا فى نفسى.

ويبدو أن حركة الزوار أزعجت مدير الشرطة، وخشـي أن تسبب لـه حرجا مع الجهات الأمنية. فطلب نقلى إلى الخرطوم. فبعد أسبوع مـن حياة الزنزانة التى ألفتها وتكيفت معها، استدعانى ضابط الأمن. وخلت فى البداية أن السلطة ثابت إلى رشدها وقررت إطلاق سراحى. وكان التفاؤل شعورا طبيعيـا بالنسبة لمعتقل "مبتدئ". ولكن الضابط فاجأنى بخبر نقلى إلى الخرطوم. وكـان الخبر مزعجا. فهو يعنى انفصالى عن أسرتى وأصدقائى فى كسلا، وعن الحياة التى بدأت أعتاد عليها والانتقال إلى سجن أجهل ظروفه. وانتابنى قلق داخلـى ولكن يبدو أنى تغلبت عليه. فقد أخبرنى والدى فيما بعد بأن سلوكى فـى ذلك اليوم قد شجعهم كثيرا. ومازلت أعجب من منا شجع الآخر.

وأصطحبنى اثنان من رجال الأمن لمرافقتى إلـى الخرطـوم. وركبنـا القطار فى عربة من الدرجة الرابعة. وبدأت أخشى أن يكون رجال الأمن قـد توهموا أنى شخص خطير وإلا ما قاموا بحراستى برجلين بينمـا حراستى لا تحتاج لأكثر من شخص وسوف أستكين له بـدون ضجـة. وازدادت دهشتى عندما اكتشفت أن أحد الرجلين يحمل مسدسا يربطه بحزام فى وسطه. فـأدركت أن الأمر جد خطير، وأن الاعتقال ليس مجرد علب سجائر وزيارات. وسـألت الرجل لماذا يحمل مسدسا مع شخص مسالم مثلى لا تحتاج حراسته لأكثر مـن عصاة صغيرة؟. فأدهشنى أكثر عندما قال إن رفيقه أيضا يحمل سـلاحا، وإن هذا إجراء طبيعى لحراسة أي معتقل. وتبادلت أحاديث مختلفة مـع الرجليـن وأكلنا سويا وأصبحنا خلال الرحلة أصدقاء.

وفى إحدى محطات السكة الحديد شاهدنى أحد زملاء الدراسة السـابقين فى مدرسة "حنتوب"، اسمه كمال ومشهور ب "أبو شعر" فجاء لتحيتـى. ولـم يخف استغرابه من ركوبى الدرجة الرابعة التى لا تليق بوضعى، رغم أنى لـم أخبره بأنى رئيس قسم التاريخ بمعهد المعلمين العالي. وعندما أخبرتـه بـأنى معتقل فى طريقى إلى الخرطوم تحت حراسة رجال الأمن، انتفض فزعا واختفى فى لحظات. وقدرت تصرف الرجل. فهو متسلح بقوله تعالى "لا تلقوا بـأيديكم

إلى التهلكة". كما أنه مستحضر للمثل الذى يقول "أبعد من الشر وغنـــى لــه". ويبدو أن الإحساس بخطورة شخصيتى قد أخذ يزداد، وأخذت تركبنى الأوهـــام الرومانسية البطولية.

وفى ظهر اليوم التالى وصل القطار محطة الخرطوم. ووجدت بعـــض أفراد أسرتي فى استقبالى. فقد كانت أسلاك التلفون تتحرك بين كسلا والخرطوم تتابع تحركاتى. وكان استقبال الأهل مصدر راحة نفسية عظمـــى. وأخذتنـــى شقيقتى الكبرى فاطمة إلى جنب، وهمست فى أذني بحذرها المألوف بأن معظـــم أصدقائى قد اعتقلوا وهم فى سجن كوبر، بل واعتقل كل من له علاقة شـــخصية مع عبدالخالق. فاتضح لى أن المسالة حملة واسعة وليست مؤامرة ضد شخصى الضعيف. فقد كنت أسال نفسى طوال الأسبوع المنصرم عن سبب هذا الاعتقال الذى لم أدرك من فرط سذاجتى مبررا له. وكنت أتوهم أنه بسبب كتابى عـــن "التعليم فى مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية" الذى صدر فى مايو. وقد انتقدت فيه ما يسمى "الثورة التعليمية". وطرحت فيه أفكارا حول قضية التعليم تتعارض مع السياسة التى أعلنتها السلطة.

وذهبنا من المحطة إلى جهاز الأمن حيث استقبلنى خليفة كرار ببشاشـــة طمأنتنى "ورقدت شعر جلدى". فتشجعت وعبرت عن احتجاجى لنقلى بالدرجـــة الرابعة وأنا رئيس قسم التاريخ بمعهد المعلمين العالى. وكان خليفة رقيقا فـــى رده. ولعله قال لنفسه ما هذا المعتوه الذى يعتقد أن الاعتقال يخضع للمنـــاصب. ثم أخبرنى بأنى سأذهب إلى سجن كوبر العمومى. فقلت لنفسى إذن أنت ذاهـــب يارجل إلى عمدة السجون حيث كان ثوار ١٩٢٤ وكل السلسلة المتصلـــة مـــن المعتقلين السياسيين. وعندما تذكرت أن المعتقلين من أصدقائى هنـــاك خفـــت وطأة تجربة المجهول فى نفسى.

(٣) سجن كوبر : التجربة الأولى :.

وصلنا ساحة السجن حوالي الساعة الثالثة ظهرا. وعندما دخلنا رحابه وواجهتنا مكاتب الإدارة اعترتني رهبة. ووجدت أمامي شعارا مكتوبا بخط عريض على إحدى جدران مكاتب الإدارة يقول "السجن تهذيب وإصلاح". فقلت لنفسي وما هو التهذيب والإصلاح الذى سألقاه هنا وأنا رئيس قسم التاريخ بمعهد المعلمين العالى. ويبدو أن وضعى الوظيفى قد ركبنى كالشيطان ولا يريد أن يفارقنى بالرغم من أن ذلك الوضع لا مكان له فى دنيا المعتقلين والسجون.

واستقبلنى فى إحدى المكاتب ضابط حديث التخرج. وكان لطيفا فى لقائه. ونمت بيننا فيما بعد صداقة من تعدد الاعتقالات. ولقيته بعد ذلك عندما أصبح عقيدا. وبعد أن أخذ المعلومات الأولية، أخبرنى بأنى سأذهب إلى قسم المديرية وربطت على الفور اسم المديرية برئاسة المديرية فى كسلا بأشجارها وميادينها. وقلت لابد أن هذه المديرية مكان متميز يليق بى كرئيس لقسم التاريخ بمعهد المعلمين العالى. وسألت الضابط عن بعض أصدقائى المعتقلين، فأخبرنى انهم أيضا فى قسم المديرية, فسرنى ذلك وكانت كلمة مديرية أول مدخلى إلى قاموس السجن.

وواجهتني أول مشكلة حول شنطة الكتب التى حملتها من كسلا. أخبرنى الضابط أنى لا أستطيع أن أحمل معى أكثر من كتابين، أما بقية الكتب فتبقى لدى إدارة السجن ويمكننى أن أستبدلها متى شئت. وعجبت من ذلك القرار، وذكرت أيام المعتقل فى كسلا حيث تكدست الكتب فى الزنزانة. ولم يدر بخلدى أن المعتقلات ستحمل فى المستقبل ما هو أسوأ من ذلك. وكدت أقول له إني رئس قسم التاريخ بمعهد المعلمين العالى وإني أحتاج لأكثر من كتابين، ولكنى عدلت عن الفكرة بعد أن بدأ يتضح لى خطلها.

وبرزت مشكلة أخرى فقد رفض الضابط أن يسمح لى بأخذ أحد الكتابين وكان عنوانه "الماركسية والمسألة القومية" تأليف جورج طرابيشى. وقال إن مثل هذه الكتب ممنوعة. فقلت له إن الكتاب ينطلق من رؤية قومية وأن أعمدة النظام الحاكم من أعضاء مجلس الثورة من القوميين. ولكنه رفض. ويبدو أن مجادلتى معه جعلته لا يدقق فى الكتاب البديل الذى أخذته وهو "رأس المال" لكارل ماركس بالإنجليزية، أو لعله اعتبر أن الكتب باللغة الإنجليزية لا ضرر

منها. فقلت فى نفسى لو يدرى هذا الضابط خطورة هذا الكتاب لمنع اقترابه من السجن. وكان دخول كتاب "رأس المال" حدثا بالنسبة للمعتقلين. ويبدو أن بعضهم من أصحاب النفس الطويل قد وطد نفسه على دراسته.

وبعد أن انتهت الإجراءات مع الضابط، أخذت حقيبتي واتجهت مع الحارس إلى البوابة الرئيسية التى تقود إلى داخل السجن، وهى باب ضخم من الحديد به باب صغير آخر يحتاج الإنسان أن ينحنى حتى يمر عبره. وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة مساء. فدلفنا من تلك الفتحة إلى داخل السجن. وأصابتنى رعشة عندما وجدت نفسى وجها لوجه مع عالم السجن الغامض. وقادنا ذلك الباب الصغير إلى ساحة شاسعة انتشر فى أرجائها السجناء من عتاة المجرمين. ويسمى هذا القسم "السراية" وهو عبارة عن ثمانية عنابر مستطيلة. منها أربعة فى الطابق الأرضي وأربعة فى الطابق الأعلى. وكل عنبرين منها متقابلان. ويفصل بينها ممرات تسمى "الجرة" بضم الجيم • إن للسجن قاموسه اللغوي الخاص الذى لا يفهمه إلا من اعتاد التردد عليه •

وكان علينا أن نمر عبر حوش "السراية" فى طريقنا إلى القسم الذى نقصده. وكانت مواجهة ذلك العدد من المجرمين أول تجربة بالنسبة لى. وكان حوش السراية فى تلك الساعة عبارة عن سوق صغير يباع فيه الشاي والقهوة والسجائر والسكر وغيرها من المواد الاستهلاكية. وعلمت فيما بعد أن "البنقو" (نوع من الحشيش المنتشر فىالسودان) يباع فيه كذلك. وكل تلك المواد تباع علنا دون خفاء، حيث لا يدخل الحراس إلى السجن بعد أن يقفل فى المساء إلا لأمر طارئ. فبعد صلاة العصر يجرى تمام المساء، ويبدأ بعد ذلك عالم الليل. فتبدأ التجارة فى السلع التى يحتاجها السجناء ليعبروا بها أيام سجنهم الطويل.

وتقوم إدارة السجن بإجراء تفتيشى مفاجئ (كشة) على أقسام السجن من وقت لآخر. وتجرى "الكشة" عادة عندما يكون السجناء فى الخارج أثناء ساعات النهار. وتصادر كل الممنوعات والأسلحة. ولكن سرعان ما يقوم السجناء بتجميعها من جديد لتأتى كشة أخرى وتصادرها. ويبدو أن إدارة السجن والسجناء قد ألفوا ذلك الإجراء وتعايشوا معه. وكانت إدارة السجن حريصة على عدم تكرار "الكشات " كثيرا مما يؤدى إلى نتائج وخيمة. وسمعت قصة – لا أدرى مدى صحتها– تقول إن أحد صف الضباط من الحراس كان يكرر تلك الكشات كثيرا مما أربك ليل السجن. فقام مجموعة من السجناء وألقوا به فى فرن السجن عندما كان يسير بجانبه منفردا. واحترق الرجل دون أن يعلم أحد من الذى قام بتلك الفعلة.

وأخذت أعبر السراية وسط ذلك الحشد وأنا أتلفت يمنة ويسرة. وبـــدأت الأسوار العالية تلتف حولي والجو يخنق أنفاسي. والسجن محاط مــن الخـــارج بأسوار عالية يسير فوقها الحراس بأسلحتهم. وتنهض الأسوار العالية أيضا فـــي داخله وتفصل كل قسم عن الآخر. ولم يستطع أي مسجون أن يهرب من تلـــك الأسوار العالية طوال تاريخ السجن ما عدا سجين واحد مصري الجنسية ، بعـــد أن أستعمل طريقة شيطانية، ولكن قبض عليه فيما بعد.

وأخذت تلك الأسوار العالية تحيط بى أينما اتجهت. فأدركت أنى أصبحت فى غياهب الجب. وأن السجن فى القصص والأفلام وفى كسلا يختلف عنه فـــي الواقع بين تلك الجدران العالية والممرات الموحشة، فهو انقطاع تام عن العـــالم الخارجى. وازداد الجو قتامة بانحدار الشمس نحو المغيب، حيث تخلـــف فـــي جريها المتسارع نحو الغروب إحساسا بالأسى وربما بالضياع وبتوقـــف الحيـــاة التى بدأ الليل يلفها بأرديته السوداء.

وبعد أن عبرنا السراية، دلفنا من باب صغير إلى ممر مقفر انتهى بنا إلى باب صغير آخر. فأخرج الحارس مجموعة من المفاتيح عالج بها القفل مثلمـــا عالج قفل الباب الأول. ووجدت نفسى بعدها فى حوش به أربعة عنابر محاطـــة بأسلاك وبداخلها مجموعة من السجناء يبدون كالقرود فى حديقـــة الحيوانـــات. وعلمت فيما بعد أن هذا القسم يسمى "الورشة" وهو مخصص للمتـــهمين الذيـــن مازالوا رهن المحاكمة ويسمونهم "المنتظرين". وسرنا فى ذلك الحـــوش حتـــى نهايته حيث وقفنا أمام باب صغير آخر خلته نهاية السجن. فقلت لعل الحـــارس ضل طريقه أو لعله يقودنى إلى مكان آخر فى قاع السجن. فهل أنبهه إلى أنـــى ذاهب إلى المديرية حسب تعليمات الضابط؟ وهل أخبره بأنى رئيس قسم التـــاريخ بمعهد المعلمين العالى لعله يصبح أكثر إصغاء لما أقول؟ وحسنا أنى لـــم أفعـــل فربما استخف بى، فقد كان بالمعتقل فى ذلك الوقت د. محمد سليمان رئيس قســـم الكيمياء بمعهد المعلمين العالى ود. مصطفى خوجلى المحـــاضر بكليـــة الطـــب بجامعة الخرطوم. وكان بالمعتقل أيضا قطاحلة من المعتقليـــن الذيـــن خـــبروا السجن منذ أيام الحكم العسكري الأول أمثال السر النـــاطق ومصطفـــى محمـــد صالح.

وقبل أن أسترد أشتات أفكارى فتح الحارس الباب. وما إن تسربت مـــن خلاله حتى سمعت هتافا وصياحا عاليا. وقبل أن يرتد الي طرفى، وجدت نفسى فى حالة عناق مع أصدقائى من المعتقلين. إذن أنا فى المديرية. وتعجبت مـــن

ذلك الاستقبال الحار والحفاوة والبهجة، وقلت لنفسى هل يعتقد هؤلاء الرفاق أنى قادم إلى حفل زفاف ؟ وتبين لى فيما بعد أن مثل ذلك الاستقبال أمر مألوف لدى المعتقلين عندما ينضم إليهم زائر جديد فى ذلك المعترك لأنه يشد من أزرهم ويقوى عضدهم ويعزز من جانبهم.

وما إن أفقت من حرارة اللقاء حتى سألنى صالح البحر "أين نمرتك يا معتقل"؟ فقلت له متعجبا ليس لدى نمرة. وكدت أقول له لا أعرف لى نمرة سوى أني رئيس قسم التاريخ فى معهد المعلمين العالى. ثم بادرنى ضاحكا من الحيرة التى اعترتنى بأن نمرتى هي الفرش الذى سوف أنام عليه. وأخذ قاموسى اللغوي يزداد. فسألت الحارس الذى صحبنى عن نمرتى، فقال إنه سيحضرها فورا. والنمرة عبارة عن برش وبطانيتين من الصوف. وأجلت النظر حولى فلم أجد أثرا للأسرة فقلت لعل الأسرة فى المديرية تبرز ليلا، أو لعلها مديرية من النوع "البلدى" بلا أسرة ٠ولكنى علمت فيما بعد أن نميري أمر بأن ينام المعتقلون على الأرض إمعانا فى إذلالهم، فبدأ بذلك تقليدا يخالف لوائح السجون فقد كان نميري طاغية متسلطا.

وبعد أن جلست قليلا أحضروا لى كوبا من عصير الليمون، فابتهجت وبدأت أشعر أنها "مديرية" بحق. ولكن لم تطل بهجتى، فأخبرونى إن الليمون عبارة عن ضيافة ولن يتكرر. وعلى أن أخدم نفسى منذ الغد، بل سوف أنضم إلى إحدى المجموعات التى تتولى مسئولية المعسكر مرة فى الأسبوع، وتشرف على النظافة وتقديم الطعام والشاي.

وأخرجت علبة السجائر وقدمت منها لمن حولى. فتخطفها القوم واختفت فى لحظات. ولكنى لم أهتم فقد كانت معى كمية من السجائر أحضرتها من كسلا. وعندما أخذت استمتع بتدخين سيجارتى فاجأنى أحدهم قائلا: تمتع اليوم بتدخين أي كمية من السجائر، ولكن منذ الغد عليك أن تسلم كل ما عندك من سجائر للمخزن وهو ملك للجميع ويسمونه "الكميون"، وسوف تصرف لى خمس سيجارات فقط فى اليوم. فقلت فى نفسى إن هؤلاء القوم يتعجلون تطبيق الاشتراكية بشكل منفر. ولذت بالصمت. ولكنى قررت أن أخفى بعض علب السجائر قبل تسليمها للكميون المذكور. اكتشفت لدهشتى أن كل سجائرى قد أخذت منذ وصولى واحتضنتها أيدى الكميون اللعين. ويبدو أنى لم أتهيأ بعد نفسيا لفكرة الكميون إياه، وهو تهيؤ يصطرع معه المعتقلون فى أيامهم الأولى.

ثم أخبرني مصطفى محمد صالح المسئول عن البرنامج الثقافي بأن في إمكاني زيادة حصتي من السجائر. فقلت بلهفة وكيف ذلك. فقال إذا قدمت محاضرة للمعتقلين أحصل على سيجارتين. فقلت من فوري أنا مستعد لتقديم محاضرة كل يوم عن تاريخ السودان منذ أقدم العصور حتى الحاضر. فضحك الجميع وقال أحدهم " هذه حيلة قديمة، وقبلك كان أشطر، المسموح تقديم محاضرتين فقط في الأسبوع". فقلت خطوة لا بأس بها تزيد حصتي بأربع سيجارات في الأسبوع حتى يأتي الفرج.

وقمت أتجول في أرجاء المديرية المزعومة. ولم يدر بخلدي أني سأدخلها في المستقبل ثلاث مرات. والمديرية عبارة عن حوش به ثلاثة عنابر طول كل واحد حوالي عشرة أمتار وعرضه خمسة أمتار. عنبران منهما ملتصقان يمتدان من الشرق إلى الغرب ويقعان في الجانب الشمالي. والعنبر الثالث في الجنوب ويلتصق به من الجانب الغربي المطبخ والكميون المذكور. وهناك مساحة تفصل بين العنبرين في الشمال والعنبر في الجنوب بها ملعب صغير للكرة الطائرة. وهناك مساحة في الجزء الغربي بها ملعب للكرة "الدافوري" (وهي كرة الشراب التي يلعبها الصبية في الحواري). وفي الجزء الشمالي الشرقي الحمامات والمراحيض. وتقع المديرية في أقصى الركن الشمالي الغربي من سجن كوبر، حتى ليسمع الإنسان صوت العربات التي تجيب الطريق بين الخرطوم بحري وحلة كوكو.

وبعد هذا الطواف جلست مع الأصدقاء نتحادث إلى وقت متأخر من الليل، ثم فرشت نمرتي ورحت في سبات عميق. وفي الساعات الأولى من الصباح أفقت على أصوات صفارات تنطلق من عدة جهات. ولكن وجدت القوم من حولي يغطون في النوم ما عدا مجموعة صغيرة تتحرك جيئة وذهابا بين العنابر والحمامات. ثم انفتح باب المديرية ودخل علينا مجموعة من حراس السجن وهم يحدثون جلبة وضجة وعلمت أن هذا وقت إجراء التمام الصباحي على السجناء. حتى يتم التأكد أن عدد السجناء الذين أجرى عليهم التمام في مساء اليوم السابق هو نفس العدد ولم يهرب منهم سجين بالليل. وقام الحراس بإحصاء عددنا ونحن نرقد على "النمرة" دون أن يكبدونا مشقة الوقوف في صفوف كما يفعل بقية السجناء. ولكن في الاعتقال اللاحق فرض علينا الوقوف في صفوف في الخامسة صباحا. وكان الإجراء مصدر احتكاك مستمر بين المعتقلين والحراس.

ويمضي اليوم في السجن في إيقاع رتيب وممل. ولكن المعتقلين السياسيين منذ الحكم العسكري الأول، ومنذ أيام الاستعمار البريطاني، استطاعوا أن يكسروا تلك الرتابة وذلك بوضع برنامج يومي يسيرون عليه حتى لا يسيطر السأم على نفوسهم. يبدأ البرنامج بالفترة الصباحية التي تنقضي في الاستحمام وشرب الشاي والحلاقة وممارسة رياضة المشي إما في مجموعات أو كل معتقل بمفرده. ثم ينصرف البعض للقراءة أو "الونسة" حتى يحين موعد الإفطار. ويبدأ بعد ذلك البرنامج الثقافي حيث تقدم ندوة أو محاضرة وتستمر حتى منتصف النهار. وينتقل القوم بعدها إلى ألعاب التسلية مثل :الكونكان والوست والشطرنج والطاولة. وينصرف الذين لا يعرفون تلك الألعاب إلى النوم أو الاطلاع. وبعد الغداء يهجع الجميع حتى موعد الألعاب الرياضية. وفي المساء تقدم ليالي السمر أو يترك لكل واحد حرية التصرف في وقته. والراديو صديق المعتقل الحميم وبعضهم يحتضنه ويكاد يبتلعه. وكان حرمان المعتقلين من الراديو في الاعتقالات اللاحقة إجراء شيطاني قصد منه تفشي الملل في حياتهم لكسر صمودهم.

ويتم هذا التنظيم للحياة اليومية وفق برنامج محدد، وهو تنظيم هام. فبعد أيام يتكيف المعتقل معه، وتنسجم حركاته مع إيقاعه. فيقل الملل ولا يغشى السأم الحياة إلا في بعض الأوقات. وتأخذ علاقات المعتقلين تتداخل في نسيج فريد من الصلات. فيصبح الجلوس تحت ظل الحائط من اللحظات السعيدة التي يفضي فيها البعض للبعض الآخر ما في نفوسهم أو يستعيدون بعض ذكرياتهم، وعندما تتمتن صلاتهم يكشفون عن بعض أسرارهم. ويزداد التآلف بينهم ويشعرون كأنهم أسرة واحدة. ثم يبدأ الفرز في الأمزجة، "فتتكون الجوقات" من أصحاب الميول المشتركة. لذلك فان الأنظمة الإجرامية الباطشة تعتقل بعض خصومها إعتقالا انفراديا في زنزانة بغرض تحطيم معنوياتهم ودفعهم إلى متاهات التفكير الفردي القاتل.

وقد سألت عبد الخالق محجوب عن الأسلوب الذى اتبعه في تحمل الاعتقالات الانفرادية التي تعرض لها والتي حرم فيها من الكتب وأدوات الكتابة. فقال إنه يستلقي على ظهره ويأخذ في كتابة مقال أو قصة في ذهنه حيث لا تتوفر أدوات الكتابة. ويراجع كل فقرة ويعيدها ثم ينتقل إلى التي تليها حتى يفرغ من الموضوع. ويقضي ساعات في ذلك الجهد. وذكر التجاني الطيب إنه عندما اعتقل في عهد نميري عام ١٩٨٠ ووضع في زنزانة في سطوح جهاز الأمن، أخذ يتذكر كل زملاء دراسته منذ المرحلة الأولية. وكان ذلك تحديا لذاكرته وقضى وقتا مسليا.

إن الإنسان حيوان له مقدرة على التكيف مع أحلك الظروف. فحتى الزنزانة الانفرادية تصبح بعد فترة مكانا يتمكن الإنسان فيه أن يبتدع نمطا من السلوك ومنهجا في الحياة يألفه ويعيش فيه. وعندما يكون الإنسان صاحب قضية فانه يحتمل أي سجن مهما كان قاسيا، ويشعر أنه في تلك الوحدة أفضل من الذين يسيرون خارج السجن وهم أسرى جرائمهم وحيث تغلف حياتهم وحشة أشد فتكا وإيلاما من وحشة الزنزانة. وليت الطغاة يدركون أن الزنزانة لا تفل عزم الإنسان الذى يؤمن بقضية ونفسه عامرة بالإيمان بها. وليتهم لو يذكروا قول سيدنا يوسف " السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه "

ولا يملك المرء إلا أن يقف إجلالا أمام تجربة انطوان قرامشى وهو فى سجون إيطاليا مشلول الرجلين. ولعل كتابه "دفاتر السجن" من أعمق ما كتب فى الأدب الماركسى. ولنا أن نذكر من هذا المقام سجين العصر نلسون مانديلا. وتحضرنى هنا القصة الشهيرة "بابلون" وهى تحكى عن سجين فى زنزانة فى جزيرة نائية فى المحيط. وكيف كان يقضى بعضا من وقته وهو يتآلف مع الصراصير ويتحاور معها، وعندما اشتد به الجوع أكلها. وكانت المديرية فى كوبر أخف وطأة من ذلك بكثير، فالأصدقاء يحفون بنا من كل جانب والشمس تشرق علينا كل صباح.

وفى صباح اليوم الأول فى كوبر برزت مشكلة. فعندما جاء توزيع الأكل اكتشفت أنى لست فى "التفريدة". والتفريدة هي التعيين اليومى الذى يحصل بموجبها المعتقل على طعامه. ويتم تحديد "التفريدة" كل يوم وتسلم إلى المتعهد فى الظهر وعلى ضوئها يقوم بتوريد الأكل فى اليوم التالى. وبما أنى وصلت السجن فى العصر فلم يدرج اسمى فى "التفريدة"، ولذلك كنت "لايص" فى ذلك اليوم. فتبرع الاخوة بتدبير أمري. و"التفريدة" لها ثلاث درجات. أولها الغذاء الخاص وله مواصفات معينة. وللمعتقلين السياسيين تفريدة. أما السجناء العاديون فيتلقون غذاء من الدرجة الثالثة، وهو غذاء دونه خط الجوع. وقد أمر نميرى بأن يكون هذا هو غذاء المعتقلين بعد أحداث يوليو ٧١.

ويقدم السجن وجبتين فى اليوم. وجبة الإفطار والغداء، أما وجبة العشاء فيترك أمر تدبيرها للمعتقلين حيث يحتفظون ببعض الأكل أو تأتيهم نجدات من الخارج أو يدعمون وجباتهم من الكميون إياه. ويتم إعداد الطعام فى مطبخ السجن ثم يدخل عليه المعتقلون بعض التحسينات. ويترك لكل مجموعة أن تبتكر التحسينات التي تراها. وطوال فترات الاعتقال بذل المعتقلون مجهودات دؤوبة

للتغلب على المصاعب التى تواجههم لتحسين الطعام وتقريبه من الطعام الآدامي

وبعد مضى ثلاثة أيام فى كوبر استدعيت لمقابلة الضابط فى مكاتب الإدارة فاستبشرت خيرا وقلت لابد أن الحكومة قد ثابت إلى رشدها وقررت إطلاق سراحى. ولست أدرى إن كان هذا التفاؤل المفرط سمة ملازمة لبقية المعتقلين وهو كامن فى نفوسهم ولا يفصحون عنه، أم إنه يخص عقلى الخفيف وخبرتى المحدودة. فتبعت الحارس وأنا أستبق الخطى. وعندما قابلت الضابط أخبرنى أن أخى أحضر بعض الاحتياجات التى كنت قد طلبتها منه. ووجدت أنه أضاف لها ثلاث علب سجائر، وكانت كرما منه لأنه كان طالبا فى كلية الطب. وقررت أن أخفى علبة منها. فذهبت إلى طه البصير مسئول الكميون وسلمته علبتين. وقال متعجبا كيف يرسل لى شخص علبتين فقط. فأخبرته أن أخى الذى أرسلها ما زال طالبا، كما أنى لم أطلب منه سجائر وإنما أرسلها تعبيرا عن مشاعره. فأستلم طه العلبتين والشك يلعب فى نفسه. ولكنى كنت ثابتا كالصخر وأنا أحتفظ بالعلبة الثالثة الثمينة وأعض عليها بالنواجز. وما إن انفردت بنفسى وأخرجت العلبة بحذر لأتمتع بتدخين سيجارة منها حتى وجدت أحد الأشرار يلتصق بجانبى ويخبرنى بأنه كشف السر، وطلب أن نقتسم العلبة. فقلت له إذا كان الأمر كذلك سأعيدها إلى الكميون، وأكتب نقدا ذاتيا لتصرفى ونفقدها معا، فاقتنع أخيرا بأخذ ثلاث سيجارات. ذكرت هذه القصة لكي أوضح أن الصراع بين الكميون والاستحواذ صراع لا ينتهى بين لحظة وإنما هو عملية تعليم وتعلم طويلة المدى.

وفى صباح السبت من كل أسبوع يقوم مدير السجن وكبار ضباطه بالطواف على السجن وتفقد أحواله والاستماع إلى شكاوى السجناء والمعتقلين. ومنذ الصباح الباكر من ذلك اليوم يأخذ السجناء فى نظافة السجن حتى يصبح قطعة من بلور (مع الاعتذار لاستعمال اللفظ). ففى يوم السبت الأول بعد وصولى كوبر شهدت المديرية حركة دائبة ونشطة من نظافة ومسح. وعند الساعة السابعة صباحا حل علينا ركب المرور يتقدمه مدير السجن ومعه كبار الضباط وطبيب السجن وخلفهم رهط من صف الضباط والجنود. وكنت مسرورا لأن طبيب السجن من زملاء الدراسة ومن أبناء مدينتنا كسلا وتربطنا صداقات أسرية. وقلت إن الرجل سوف يمنحنى عناية خاصة فى هذا الجب العميق. ولكن المعتقلين حذرونى من الإفراط فى التفاؤل. وجاء الطبيب فى ركب المرور، وحيانى تحية باردة بدلا من أن يعانقنى كعادة أهل السودان.

وتحاشى أن يعيرنى أي انتباه خاص. فانكمشت ولم أحنق عليه، وقلت لعل وضعه الحساس فرض عليه ذلك التصرف.

وكنت أنام مبكرا. وفى إحدى الليالى حوالي الساعة التاسعة أيقظنى محمد نور السيد من النوم فقمت متهللا وقلت لابد أن الإفراج قد جاء، وليكن ليلا. فإذا به يقول قم فان والدك يتحدث فى الراديو فى مقابلة. ورغم حبى لوالدى وإجلالي له إلا أن حديثه فى الراديو لم يكن الخبر الذى كنت أنتظره. وأخذت أستمع إلى الحديث، فصوت والدى خير من وحشة السجن. وجاء صوته دافئا رزينا كما عهدته ويجلله الوقار. وعندما ذكرت الحادث لوالدى فيما بعد ضحك كثيرا.

وأخذت أعتاد على حياة المديرية وعلى إيقاعها الرتيب. وكانت الأيام تتسرب من ثنايا حياتنا فى بطء. ومرت الصدمة الأولى فى كوبر بسلام. وفى عصر ١٩ يوليو ١٩٧١ كنت مستلقيا فى "تمرتى" ولم أذهب لمشاهدة مباراة الكرة الطائرة. فإذا بى أ سمع صياحا عاليا ينبعث من الجانب الآخر من المديرية. وجاء أحد المعتقلين يصيح بطريقة لا تخلو من هستيرب. ولم أ ستبن فى البداية ما كان يقول. وحسبت أنه ربما أصيب بلوثه، أو لعله انتصر فى المباراة. وبعد لحظات اتضح إنه يقول "هاشم العطا ... السلطة السلطة". ثم علمت أن الإذاعة أعلنت أن الرائد هاشم العطا سيذيع بيانا بعد قليل، مما يعنى أن هاشم العطا استلم السلطة وهو معروف بأنه ضابط شيوعى، وكان نميرى قد أقاله من مجلس الثورة قبل ثمانية أ شهر. وأصبح المعتقل فى حالة هرج ومرج وحركة دائبة لا تتوقف. وكثرت المناقشات والمحاورات. لقد دبت فى المعتقل حياة جديدة نفضت عن كاهل المعتقلين رتابة الأسابيع المنصرمة.

وأخذنا نترقب البيان الذى كان الراديو يردد قرب موعد إذاعته. وبقينا على تلك الحالة حتى غربت الشمس وحل الظلام. وأخذت تتنابنا الشكوك والريب، و تضاعف وقعها من جراء العزلة التى نحن فيها، فليس من الطبيعى أن يتأخر إذاعة بيان الانقلاب خمس ساعات. وتذكر بعضنا انقلابا وقع قبل أسبوع فى المغرب بقيادة الجنرال "مدبوح" ضد الملك الحسن الثانى، وفشل الانقلاب وأعدم قائده. وعلق أحدنا أن اسم "مدبوح" يحمل فى طياته نذير شؤم، فغشيتنا سحابة من التشاؤم. وعلمنا بعد أشهر أن هاشم العطا كان يبحث عن قادة الحزب الشيوعى الذين كانوا تحت الأرض فى ذلك الوقت، حتى يصوغوا له البيان. كما أن هاشم العطا كان يتحرك بمفرده إذ أن أهم شخصين

فى الانقلاب وهما بابكر النور وفاروق حمداالله كانا فى لندن فى ذلك الحين.

وأخيرا أذاع هاشم العطا البيان الذى أعلن فيه قيام سلطة الجبهة الوطنية الديمقراطية بهدف تصحيح مسار ثورة مايو بعد أن انحرفت عن طريقها. ورغم جو السجن والغموض الذى كان يحيط بالأحداث التى تجرى فى الخارج، فقد أخذ المعتقلون فى الاحتفال والتهليل. وعلمنا فى ذلك الليل أن هاشم العطا -عطر الله رمسه- جاء إلى السجن وأمر بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين من الديمقراطيين والشيوعيين. وكانت مبادرته بالحضور إلى السجن والاهتمام بأمرنا لفته وجدت منا تقديرا عميقا. ولكن غاب عنا فى خضم البهجة أن هاشم العطا لم يأمر بإطلاق سراح بقية المعتقلين من الاتجاهات السياسية الأخرى. ولم تعش حركة هاشم العطا طويلا حتى نحكم على ذلك الموقف إن كان طارئا أم سياسة ثابتة. وأصبح تصرف هاشم ذاك يحسب عليه وعلى الحركة السياسية التى كان يتحدث باسمها. وهذا أمر ليس هنا مجال الخوض فيه.

وفى الصباح الباكر خرجنا من المديرية ومن أسوار كوبر إلى رحاب العالم الفسيح. وتركنا كل السجائر فى الكميون، وأخذنا ننتظر شذرا إلى مسئول الكميون الذى بخل بالسجائر علينا ليسقط فريسة فى أيدى السجناء. ولكن الفرحة كانت طاغية. وجاء الطبيب فى ذلك الصباح يستقبلنا بالبشر والترحاب. وعرض أن يقوم بتوصيل بعضنا بعربته. فأيقنت أن الرجل انتهازى حتى النخاع.

وانتهت التجربة الأولى فى سجن كوبر، والتى حسبت فى ذلك الوقت أنها التجربة الأخيرة.

(٣)وعدنا إلى كوبر

وكانت الأيام الثلاثة من التاسع عشر حتى الثانى والعشرين من يوليو ١٩٧١ أياما زاخرة بالحركة ومفعمة بالتفاؤل. وقد طغى ذلك التفاؤل على ما كان يجرى تحت السطح من صراعات ومؤامرات. ولعل الكثيرين كانوا مثلى غرقى فى التفاؤل. وكان الموكب الذى سار صباح الثانى والعشرين من يوليو إلى ساحة الشهداء واحتشد أمام القصر الجمهورى، موكبا مشحونا بالبشائر والبشرى. وألقى الرائد هاشم العطا خطابا وضح فيه معالم سياسة "الثورة التصحيحية" التى جاءت لتصحح مسار ثورة مايو. وكان الهتاف الطاغى فى الموكب هو " كل السلطة فى يد الجبهة"، أي الجبهة الوطنية الديمقراطية التى ظل الحزب الشيوعى يرفع لواءها قرابة عقدين من الزمان. وكانت هناك هتافات أخرى يسارية جانحة مثل " سائرين سائرين فى طريق لينين "، وكان وقعها فى آذان البعض مثل اللسع، ولكن الحماسة الطاغية جعلت وقعها لدى البعض مجرد وخز، ولم يعرها البعض الآخر التفاتا، وطرب لها نفر آخر. وكانت أغلب اللافتات حمراء.

وبعد انتهاء الموكب التقيت مع عبدالخالق محجوب فى منزل حامد الأنصاري فى الخرطوم (٢) حيث ضم اللقاء مجموعة من مختلف التيارات السياسية. وكان ذلك أول لقاء مع عبدالخالق منذ نوفمبر ١٩٧٠ وكان أيضا آخر لقائى معه. وسألنى عن رأيى فى الموكب. فقلت له كان موكبا حاشدا و موحّدا فى هتافاته وشعاراته. فقال ألا تعتقد أنه كان يساريا لحد كبير مما يسبب لنا أضرارا ومتاعب؟ وصفعنى ذلك التعليق حتى أفقت من حدته كالملسوع. ورغم أنه كان تعليقا قصيرا إلا أنه عميق وبعيد النظر، وبقى عالقا بذهنى طوال تلك السنوات. وكان عبدالخالق منزعجا لحد كبير من خبر الطائرة التى أرغمتها السلطات الليبية على الهبوط فى طرابلس وهى فى طريقها من لندن إلى الخرطوم وعلى متنها المقدم بابكر النور رئيس مجلس قيادة الثورة الجديد والرائد فاروق حمدالله عضو المجلس.

وكانت قد مضت على حركة هاشم العطا اثنتان وسبعون ساعة. وسمعت شائعات وهمهمات منذ الليل السابق عن انقلاب مضاد يجرى الإعداد له فى الخفاء. ولم أعط تلك الأحاديث اهتماما. فقد كنت مخمورا بالنشوة والغفلة مثلى مثل كثيرين غيرى. وما اعتقدت أن انقلابا استلم السلطة بتلك السهولة يمكن أن

يهزم فى غضون أيام. وحتى القلق الذى كان باديا على عبدالخالق لم يلق هوى فى نفسى.

وعدت فى الظهيرة إلى منزل صهرى فى أم درمان وتناولت طعام الغداء وأخلدت إلى النوم لأرتاح من تعب يوم مضن. وكنت أسمع بين النائم والصاحى أصوات رصاص ينطلق من بعيد. ولم أتبين أهي حقيقة أم حلم. وواصلت نوما متقطعا تتخلله الطلقات من حين لحين. وحوالي الساعة الرابعة أفقت على صوت صديقى صلاح الزبير الذى أيقظنى وهو يقول "أنت نائم والدنيا مقلوبة". وكان وجهه مكتسيا بالقلق. فانقبض قلبى قبل أن أعرف سبب انقلاب الدنيا، فأخبرني أن انقلابا مضادا قد وقع وأن قتالا يدور بين أنصار هاشم العطا وجماعة الانقلاب الذى تشير الدلائل أنه يؤيد جعفر نميرى. فخرجنا إلى الشارع وأنا تحت وطأة الذهول والإحباط. وتبين لى منذ أول وهلة أن حركة هاشم العطا قد اندحرت.

ووقفنا مع جمع من الناس فى الشارع الرئيسى أمام حديقة الموردة. وأخذنا نرقب الأحداث وهى تجرى تباعا ونحن فى حالة شلل فكرى ونفسى. وكانت الدبابات وعربات الجنود تنطلق أمامنا سراعا. ثم جاءت دبابة وعليها الرائد أبوالقاسم محمد إبراهيم واتجهت إلى مبنى الإذاعة. فكان ذلك تأكيدا على انتصار جماعة نميرى. وحوالي الساعة السابعة مساء ظهر نميرى فى التلفزيون وهو يلبس لبس الميدان. وابتدر الناس قائلا "أهلا شعبى"، وأصبحت تلك التحية فيما بعد مثار تندر. وأعلن عن تشكيل محاكم ميدانية وهي محاكم عسكرية أدخلها اللورد كتشنر عندما بدأ غزو السودان عام ١٨٩٦ لمحاكمة الجنود الذين يرتكبون أعمالا مخلة بالنظام. وتشكل تلك المحاكم فى ظروف الحرب وإجراءاتها سريعة وأحكامها تنفذ فورا. وبقيت المحاكم الميدانية قابعة فى القانون العسكري ولم تستعمل منذ عام ١٨٩٨ إلا عندما نفض عنها نميرى تراب السنين عام ١٩٧١. ورغم جهلى فى ذلك الوقت بطبيعة المحاكم الميدانية، إلا أن النبرة التى أعلن بها نميرى عن تشكيلها كانت نذير شر مستطير.

وبدأت الإجراءات القمعية الوحشية، فقد كان نميرى يريد أن يصفى حسابه مع الحزب الشيوعى والحركة الديمقراطية، ويجتث جذورهما من أرض الحركة السياسية السودانية. كما كان ينفذ تلك التصفية نيابة عن بعض التيارات السياسية التى كانت لها حسابات مؤجلة مع الحزب الشيوعى. وكان يسعى أيضا

إلى إرضاء قوى إقليمية وعالمية ويتقرب إليها بتلك الاجراءات القمعية. وقد ذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه " زيارة جديدة للتاريخ ص ١٣٧ " أن بوريس باناماريوف ذهب يوما الي الرئيس السادات بعد محاولة انقلاب فاشل في السودان يرجوه أن يتدخل لإنقاذ حياة ... الشفيع ووعد الرئيس السادات أن يبذل مساعيه لدي نميري ، واتصل بنميري وطلب منه أن يعدم الشفيع وعبد الخالق محجوب.

لم يحدث أن تمت منازلة حركة سياسية بمثل ذلك العنف الدموي في تاريخ السودان الحديث إلا حركة الإمام المهدى بعد هزيمتها فى معركة كررى عام ١٩٨٩ وحركة ١٩٢٤. وكان العنف فى كل من الحالتين قد تم على يد الإدارة البريطانية. أما نميرى والذين تعاونوا معه فى تنفيذ المذابح التى وقعت فى معسكر المدرعات فى الشجرة بالخرطوم، فهم أول سودانيين يبتدرون العنف الدموي فى معترك السياسية السودانية. وكان عبدالخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرنق أول سياسيين مدنيين يعدمون فى السودان فى تاريخه الحديث. وقد أصدر الحزب الشيوعى السودانى كتيبا عام ١٩٧٤ بعنوان " حقائق ووقائع مجزرة الخرطوم " اعتمد فيه على الوثائق وشهود العيان وقدم وصفا حيا لتلك الأحداث الدموية.

ومضت ثلاثة أيام بعد هزيمة حركة هاشم العطا زلزلت فيها الأرض زلزالا. وكنت خلالها مشلول التفكير مشتت الذهن حائر اللب كسير النفس. وفى عصر اليوم الرابع فتحت الراديو على محطة أم درمان. فسمعت المذيع يتلو أسماء أشخاص أعرف أغلبهم. ولم أتبين مدلول الخبر لأنى لم أستمع لبدايته. فأخذت أصغى وأنا فى حيرة. وخشيت أن يكون قد أصابهم مكروه. فقد كانت الإعدامات وأحكام السجن المؤبد تتوالى فى تلك الأيام وتذاع تباعا. وفجأة سمعت المذيع يذكر اسمي. فازدادت حيرتى. واختتم المذيع الخبر قائلا بأن هذه أسماء شيوعيين هاربين، وأن السلطة تطلب إلقاء القبض عليهم فأدركت أن الأمر انتقل من مرحلة الصراع السياسى إلى مرحلة الهستيريا السياسية. وخشيت أن يتعرف علي مخبول فى الطريق فينقض علي ممسكا بتلابيبى باعتبارى هاربا ويسلمنى إلى السلطة ليحظى ببطولة جوفاء. فطلبت من خالى عثمان أبوبكر(أخصائي الأمراض الصدرية حاليا) أن يأخذنى بعربته إلى مركز الشرطة لأسلم نفسى.

وذهبنا إلى مركز شرطة أم درمان بجوار المجلس البلدى. ووجدنا ضابطا برتبة عقيد. فذكرت له ما سمعته فى المذياع وعبرت عن استيائى لوصفى هاربا بينما أنا موجود فى منزل أهلى ولم يطلب منى أحد أن اسلم نفسى. فطيب الرجل خاطرى وقال إن المذياع يعتمد على الإثارة. فأيقنت أن السلطة تنطق بصوت غير صوت أهل السودان. لقد كان لتلك المقابلة وقع طيب فى نفسي. ثم طلب الضابط من خالي أن ينصرف وهو مطمئن، وأنه سيرسلنى إلى وزارة الداخلية فى الخرطوم. وعندما ذكر وزارة الداخلية بدلا من معسكر الشجرة ازداد اطمئنانى، وتبين لى أن ما يبثه المذياع ليس إلا هستيريا إعلامية.

ووجدت وزارة الداخلية تموج بأعداد من الناس الذين أعرف أغلبهم. وكانت أ سماء بعضهم قد وردت من المذياع. وظللنا ننتظر ونحن لا ندرى ما هو مصيرنا وكلنا محبط النفس تخيم علينا سحابة أسى قاتمة ومسحة انكسار أكثر قتامة. ولكن فى النفس يقينا وثباتا. وعندما طال بنا الانتظار شعرنا بالجوع فأرسلنا جنديا اشترى لنا سندوتشات من الفول ابتلعناها لنسكن صيحات الجوع.

وحوالي الساعة التاسعة حملتنا عربات الشرطة إلى سجن كوبر. وتنفسنا الصعداء. وكنا نسير بعد بداية حظر التجول. فسرنا فى طرق موحشة كانت حتى أيام خلت تموج بالحركة وتضج بالحياة. وكانت دوريات الجيش توقفنا بين حين وآخر.

وهكذا عدت إلى كوبر بعد مضى ثمانية أيام. وأيقنت حينئذ أن الأرض فعلا كروية وأنها تدور حول الشمس، ولكن دورانها هذه المرة استغرق بضعة أيام بدلا من اثني عشر شهرا. وكنت أتذكر ونحن فى الطريق إلى كوبر المديرية والنمرة والكميون. فأنا ذاهب إلى مكان أعرفه ولن أجد مشقة فى التعايش معه. ولم يدر بخلدى من فرط سذاجتى أن كوبر سيحمل لى هذه المرة وضعا مختلفا تماما. فدوران الأرض السريع الذى بدل الحال من انتصار سلطة الجبهة إلى هزيمتها، كان يحمل معه أيضا دورانا حادا فى وضع سجن كوبر.

وعندما وصلنا مكاتب السجن التى كانت فى الماضى هادئة يجللها النظام، وجدنا هرجا ومرجا وأخلاطا من الناس والضباط والجنود وهم فى جيئة وذهوب. والحالة كلها كأنها فزع القيامة. وبعد الانتهاء من الاجراءات الأولية، أخبرنا الضابط بأننا سنذهب إلى السراية. وبما أنى أصبحت خبيرا فى شئون كوبر من تجربة الأسبوعين السابقين، فقد انبريت للضابط وقلت له محتجا كيف

تضعونا مع المجرمين فى مكان واحد. فأخبرنى بأن كل السـجن - مـا عـدا "الورشة" - قد افرغ من السجناء وخصص للمعتقلين السياسيين. فقلت فى نفسى إن هذا مقام سيطول أمره، وما على المرء إلا أن "يتحزم ويتلزم ويكرب وسـطه" كما يقول أهل السودان. ودخلنا كوبر.

(4)التركيب السكاني لسجن كوبر في يوليو ١٩٧١

كان من حسن حظنا أن وضعنا في السراية. فهناك بعض المعتقلين وضعوا في مكان يسمى "حوش الطوارئ". وهو مكان يستعمل في حالات الطوارئ عندما يكتظ السجن بالوافدين. وهل هناك طوارئ أكبر من يوليو ١٩٧١؟ وقد حصل حوش الطوارئ على ترقية على عهد نميري ١٩٨٣ فأصبح مقرا للصلب والقطع من خلاف، ونصبت فيه مشنقة للاعدام هي التي تدلى منها الشهيد محمود محمد طه. فزج ببعض المعتقلين في ذلك العراء. ونصبت خيام يلوذون بظلها. وكان بالحوش مجموعة من المعتقلين أذكر منهم الفنان محمد وردى والشاعر محجوب شريف.

وعندما دخلت السراية إذا بى أمام مئات من الناس، لم أتبين أكثرهم في ذلك الظلام بينما عرفت البعض من مشيته. وكان أغلبهم شارد الذهن ولم يحلق لحيته منذ فترة. والتف حولي بعض معارفي يسألني عن الأخبار لأن أغلبهم كان قد اعتقل قبل أيام. ولم تكن لدى أخبار أقولها. فأنا قادم من تيه مثل التيه الذى هم فيه. ولعلهم لم يكونوا يبحثون عن خبر بقدر ما كانوا يبحثون عن نسمة يستنشقون منها هواء العالم الخارجي. ولكنى لم أكن في مزاج يجعلني أكون طبيبا نفسيا يهدئ الخواطر. فقد كنت أشعر أن داخلي كله خواء. أما أمعائي فقد كانت ساكنة بعد ساندويتش الفول الذى التهمته في وزارة الداخلية.

وأخذت أتجول في أنحاء السراية التي كانت قبل أيام خلت تضم عتاة المجرمين. وكنت أبحث عن المزيد من الأصدقاء والمعارف. وبعد أيام تعرفت على الخريطة السكانية للسراية. وكانت خريطة حوت فأوعت. وقال أحد المعتقلين ساخرا "كنا قبل أيام نهتف كل السلطة في يد الجبهة والآن أصبحت كل الجبهة في يد السلطة". ورغم ما في التعليق من لؤم ومرارة، إلا أنه أثار موجة من الضحك. وشر البلية ما يضحك "ولكنه ضحك كالبكا."

وكان من أبرز نماذج المعتقلين رجال السياسة الذين تولوا مناصب وزارية مثل الأستاذ عبدالكريم ميرغنى. ومنهم بعض الرموز الرفيعة في الخدمة المدنية مثل قاضى المحكمة العليا صلاح حسن والدكتور خالد حسن التوم وكيل وزارة الصحة وصلاح مازرى وكيل وزارة الإسكان وخبير تخطيط المدن وإبراهيم جادالله مدير وزارة الجنوب وعبدالرحيم موسى النائب العام وقسم الخالق إبراهيم الذى عينه هاشم العطا مديرا للشرطة. وانضم إليهم فيما بعد قريب الله

الأنصارى وكيل وزارة التخطيط ونائبه أبوزيد محمد صالح. وهناك مجموعة كبيرة من المعلمين من مختلف المراحل، وأصبح بعضهم رموزا شامخة فى حقل التعليم مثل أحمد محمد سعد ومحمد محجوب شورة وعباس على. وهناك مجموعة كبيرة من المهندسين والأطباء وأساتذة الجامعة، بل كان هناك مهنيون من كل تخصص. وكان الموظفون بلا حصر. وعلى رأس هؤلاء دكتور الطاهر عبدالرحمن نقيب الأطباء وبرقاوى رئيس اتحاد الموظفين وخليل اليـاس رئيس اتحاد الشباب وسكرتيره جلال المحامى. أما العمال النقابيون فكانوا هم عصب سكان السراية. نقابيون من مختلف الاتجاهات والنقابات. وكان الشفيع أحمد الشيخ سكرتير اتحاد نقابات العمال ورمزه الحي لمدى ربع قرن قد أعدم قبل أيام. وكان على رأس العمال النقابيين عوض الله إبراهيم رئيس اتحاد العمال وحسن أبوجبل ومختار عبدالله والحاج عبدالرحمن وبدوى وداعة الله. ورجال الفن كانوا هناك أيضا الفنان محمد وردى الذى نقل من حوش الطوارئ لينضم إلى محمد الأمين وإدريس إبراهيم الفنان الشعبى. وتخلل ذلك الحشد مجموعات من الشباب. شباب غض بعضهم دون العشرين وكانت عيونهم تبرق بالأمل لأيام خلت. وهناك مجموعات من المعتقلين من أسرة واحدة. مثل أبناء الأنصارى برير الذى حكم عليه فيما بعد بعشرين سنة، وقريب الله وأخوهما حامد الذى حكم عليه بعشر سنوات وهو فى قسم آخر من كوبر. وهناك "أبناء السريحة" عبدالوهاب وعبدالمتعال وعمر وأبناء شقيقهم محمد وإبراهيم. وهناك رهط من أبناء النور بقيادة فاروق محمد إبراهيم وصديق يوسف وأسامة عبدالرحمن النور.

ويخال المرء أن السودان كله كان ممثلا فى ذلك الحشد. وقد علق الأستاذ أحمد سعد ساخرا بأن السودان لم يشهد حشدا من المثقفين فى السجون بهذه الكثافة إلا على أيام الخليفة عبدالله (١٨٨٥ - ١٨٩٨)، مشيرا إلى مجموعات العلماء والمعتقلين الذين زج بهم الخليفة عبدالله فى سجن "الساير" فى أم درمان. وكان ذلك الحشد فى كوبر بحق عونا وسندا لنا ونحن نثبت أقدمنا فى مستنقع الردة الآسن. والمثل الذى يقول "الموت مع الجماعة عرس" مثل له أبعاد متشعبة وله عمقه النفسى. فمشاكل الإنسان فى ذلك الخضم تصبح قطرة فى لج بحر، وتصبح همومه مهما تعاظمت قليلة الشأن بالنسبة لهموم مئات الشباب والشيوخ الذين كانوا يموجون كالطوفان فى حوش السراية.

وجاء إلى السراية بعض الأشخاص الذين جرفهم طوفان الهستيريا السياسية، وأمضوا أياما وبعضهم ساعات وهم ونحن فى حيرة. فشرفنا عصام محمد إبراهيم لفترة يوم. ثم جاء جابر أبو العز المقاول المشهور ومعه كميات

من السجائر يدخنها تباعا. ثم جاء أستاذ الجيل محمد حمزة، واستقبله المعتقلون بما يليق بمكانته التربوية، ورغم أنه قبل أشهر ثلاثة انهال شتما على الشيوعيين فى مهرجان سياسى أقيم فى ميدان سباق الخيل فى إبريل ١٩٧١. وخرج الرجل ولسانه يلهج بالثناء على الشيوعيين "أولاد الناس". وجاء إبراهيم المحلاوى وهو شيخ مسن، وكان نائب دائرة عطبرة فى أول انتخابات وطنية عام ١٩٥٣، وأصبح وزيرا للثروة المعدنية فى إحدى حكومات الحزب الوطنى الاتحادى. وجاء رجل اسمه الصائغ كان قد أرسل برقية تهنئة إلى هاشم العطا وفى يوم ٢٢ يوليو أرسل برقية أخرى إلى نميرى يطالبه بالضرب على المخربين بيد من حديد. ولم تشفع له برقيته التى قال فى التحقيق إنها أطول من البرقية التى بعثها إلى هاشم العطا ، فاقتادوه إلى كوبر. وكان أطرف شخص بين هذه المجموعة رجل لا نعرف اسمه إذ أنه كان يسير بيننا باسم "رأس النيفة". وقصته أنه كان يسير فى إحدى الأمسيات بعيد حظر التجول وهو يحمل "رأس نيفة" ليتناوله فى العشاء، أو ربما كان "مزة". فاعترضه أحد رجال الأمن وسأله ماذا يحمل فقال له "رأس نيفة". فقال له رجل الأمن المتشنج"رأس نيفة يا مستهبل". واقتاده إلى المخفر وأرسلوه إلى كوبر. وكان الرجل يسير فى السراية شارد الذهن، ولعله كان يلعن رأس النيفة الذى كاد أن يوقعه فى تهلكة. وكنا نعطف عليه. وغادرنا بعد أيام.

ثم جاء حسب الرسول عرابى ومعه صلاح محمد نورالدين وإدريس المهندس الذى اشتهر فى كوبر باسم "إدريس أبودقن" نسبة إلى لحيته التى كانت مظهرا نادرا فى تلك الأيام، وكانوا يعرفون بجماعة "القنطرة". والقنطرة تعبير شائع فى لعبة كرة القدم، وتعنى تهيئة الكرة فى أحسن وضع حيث توضع فوق كومة من التراب "قنطور" حتى يستطيع اللاعب أن يضربها ويرسلها إلى أبعد مدى ويصيب الهدف. وكان حسب الرسول وصاحباه قد زاروا عبدالخالق محجوب صباح يوم ٢٢ يوليو ولم يجدوه فى المنزل. فكتبوا له مذكرة قالوا فيها "نحن قنطرناها وانتم شتوها"، أي نحن هيأنا الوضع السياسى لاستلام السلطة وانتم قطفتم الثمار سهلة. وأمهروا المذكرة بإمضاءاتهم. ولم تكن المذكرة أكثر من دعابة عكست روح حسب الرسول الخفيفة. وفى عصر نفس اليوم وقعت الواقعة وانهزمت حركة هاشم العطا. وعندما قام رجال الأمن بتفتيش منزل عبدالخالق أخذوا كمية من الأوراق منها مذكرة القنطرة. وبعد أيام تم اعتقال الفرسان الثلاثة أصحاب "القنطرة". وكانت "القنطرة" الموضوع الأساسى فى التحيق معهم، كما كانت موضوع تندر حتى من حسب الرسول وصاحبيه.

وحسب الرسول رجل نسيج وحده، سواء فى شخصيته أو فى ما منح من بسطة فى الجسم. وقد تكشفت له قدرات بارعة فى التعامل مع السجن والتكيف على أوضاعه. فبعد أيام استطاع أن يحصل على أشياء نادرة مثل الزيت والبصل والشطة، ثم تطور الأمر إلى السمك الذى كان للمعتقلين فى ذلك الوقت مثل المن والسلوى.

وكان بين المعتقلين المرضى الذين لا تسمح لهم ظروفهم الصحية إلا بالوجود فى أوضاع معينة، مثل الأمين حامد الذى يعانى من ضعف فى أعصاب الرجلين ولا يستطيع أن يقف إلا بمساعدة الآخرين. وظل الأمين مدى أربعة أيام وهو لا يستطيع أن يستعمل مرحاض السجن، حتى أحضروا مرحاضه الخاص من المنزل. وهناك مرضى السكر الذين لم تتوفر لهم أي عناية طبية فى تلك الأيام الأولى. فهدّهم المرض وأخذت صحتهم تذوى كأوراق جافة تعصف بها رياح التسلط والبطش.

واستمر سكان السراية فى إزدياد. فكان المعتقلون يفدون تباعًا. وما إن يفتح باب السراية حتى تشرئب الأعناق نحو القادم الجديد. وما إن يتم التعرف عليه حتى يهرع نحوه أصدقاؤه ومعارفه ويحتضنونه مرحبين ليطمئن " وترقد شعرة جلده" ويشعر أنه "At home" . فشرفنا بعد أيام حسن التاج وملأ المكان بضحكته المتميزة، وانضم فورا إلى صديقه محمد نور وتمكنت مثل جماعة "القنطرة" من الحصول على بعض أطايب الطعام. ثم شرفنا قريب الله الانصارى وأبوزيد محمد صالح. وكان كل يوم يحمل وجهها جديدا.

وكان بين المعتقلين شخصيات غريبة قليلة العدد. ولا ترجع غرابتهم إلى شيء إلا لأن غالبية المعتقلين لا يعرفونهم. فقد كان المعتقلون ينتمون إلى المنظمات الشيوعية والديمقراطية. وظل نشاطهم متداخلا فى الحقب الماضية فى المجالات الحزبية والنقابية والثقافية والشبابية. وكانت الشخصيات التى تتحرك فى ذلك النشاط تعرف بعضها بعضا. ولذلك عندما يأتى معتقل غير معروف ولم يلامسة المعتقلون فى مجالات نشاطهم المختلفة فهو غريب بالنسبة لهم، وتنتابهم الريب حوله. وكان البعض على يقين من أن تلك الشخصيات عناصر مندسة من جهاز الأمن. وما كان لأحد أن يحفل بهم فى ذلك الخضم والذى ليس فيه أسرار. فقد كان همّ المعتقلين فى تلك الأيام أن يحافظوا على تماسكهم وسلامة صحتهم. وليس فى هذا سر أمنى يخشون عليه. ولكن المعتقلين أخذوا حذرهم من أولئك الأغراب. ثم أطلقوا عليهم لقب "الغواصات" سواء كانوا مندسين أو غير مندسين.

وكان وجود "الغواصات" مصدرا لبعض النوادر التى لا تخلو من قسوة. فقد كان معنا فى مستشفى كوبر أحد أولئك الذين كان يشتبه فى أنه غواصة. وفى إحدى الأمسيات كان الرجل يرقد فى سريره ويكتب فى ورقة. وكان اليوم التالى يوم زيارة الأسر. فجاء أحد المهوسين من المعتقلين وقال إن الغواصة يكتب تقريرا عن المعتقلين ليسلمه إلى من سيزوره غدا من أهله ليحمله إلى جهاز الأمن. وقبل أن يفحص الناس صحة الرواية قرروا الاطلاع على ذلك التقرير الخطير. وتفتقت عبقرية بعضهم عن خطة وهى أن يضعوا منوما فى الشاي ويقدموه للغواصة. وشرب الرجل الشاي بطيب خاطر وراح فى سبات عميق. فأخذوا شنطته إلى حوش المستشفى واستخرجوا منها الورقة. فكانت تحتوى على قائمة ببعض الطلبات الشخصية مثل الصابون والمعجون والتى كان الرجل يريد من أهله أن يحضروها له فى المرة القادمة. فضحك الناس. وانزوى ذلك المهوس خجلا. ولا شك أن الجو الذى كان يخيم على المعتقل يبعث على مثل تلك التصرفات الهستيرية.

ومن طرائف الغواصات أن جاءنا فى المديرية شاب اسمه حسن، ولم يعرفه أحد من المعتقلين الذين كانوا جميعهم من جيل واحد. فذهب إليه محمد نور السيد ليتعرف على حقيقته. فسأله أين تلقى تعليمه. فقال له فى الكمبونى. ثم سأله ما هو لون عجلتك. فقال له سوداء فقال له محمد نور "والله لو تدخل كمبونى بعجلة سوداء إلا كان كسروا ذرعيك، يا حبوب تلاميذ كمبونى عجلاتهم حمراء ودركسونها مقلوب". واستنتج أن الشاب مريب. ولكن بعد أيام اتضح أن حسن يعمل فى الإدارة المركزية واعتقل لوجود جريدة "الميدان" السرية فى حوزته. فأطلق عليه محمد نور "حسن صاقعة النجم". ومازال الشاب يذكر تلك النادرة كلما التقيت به.

وهناك تجربة أخرى أكثر مرارة من التجربتين السابقتين. ففى إحدى المرات التى دخلت فيها سجن كوبر، رأيت شابا أطلقنا عليه فيما بعد اسم الحلبي وهو لقب يطلق عادة على الغجر أو النّور ثم شاع ليتجاوزهم لمن كان فى مثل لون بشرتهم. ووجدت اعتقادا لدى بعض المعتقلين أن الحلبي "يعمل فى جهاز الأمن. فقد أشار أحد المعتقلين إلى ذلك الشاب قائلا " أنظر هاهو السواد سيد الشغال"، يقصد أنه يعمل بهمة ونشاط لتذويد جهاز الأمن بالمعلومات. وكان التعامل يتم معه فى حذر. وفى إحد الأيام طلبوا منى أن اقدم محاضرة عن دخول الإسلام السودان. وكانت الدعوة للمحاضرة محدودة لأن المعتقل كان يعج بأخلاط من البشر من تجار عملة ومهربين وسياسيين. وقبل أن أبدا

المحاضرة، اكتشف أحدهم أن "الواد سيد الشغال" يجلس بين المستمعين رغم أنه لم يدع إلى المحاضرة فوقف منظم المحاضرة وقال إن الدعوة لهذه المحاضرة دعوة خاصة ومن لم تصله الدعوة عليه بالانصراف. وأدركت حرج الموقف. فقلت بما أنى مقدم المحاضرة فلا أرى ضررا من حضور أي شخص لأنها محاضرة عامة. وهكذا بقى الحلبى. ثم تشاء الظروف أن يتم ترحيلنا إلى سجن آخر، وكنا خمسة عشر معتقلا ومن بيننا "الواد سيد الشغال". فكان وجوده مصدر "عكننة" للبعض. وكان لابد لنا فى ذلك المعتقل المحدود من أن نستبين أمر الحلبى هذا. فكلفنا الأخ محجوب شريف لما عرف عنه من طول البال للوقوف على أمره والدخول عليه "ومخاسسته". وبعد أيام تكشف له أن الحلبى كان مدركا للشائعات التى تدور حوله. واتضح لمحجوب أن الشاب ديمقراطى وله نشاط كبير وأن كل أسرته منخرطة فى العمل الوطنى. ثم قدمه محجوب فى إحدى ليالى السمر ليحكى قصته التى اختلطت فيها الجوانب الهزلية بالمأساوية. وأعجبنا بذلك الشاب الذى تحمل تلك الضغوط فى ظروف الاعتقال وهو ثابت الجنان حتى انقشعت سحائبها القاتمة.

لقد كانت الخريطة السكانية لقسم السراية بسجن كوبر فى يوليو ١٩٧١ شديدة التنوع، وتزدحم بأخلاط من الناس كان عليهم أن يجدوا صيغة للتعايش فى ذلك الجو. فكيف سارت الحياة فى جو الردة ذاك؟

(٥) وجه كـوبر الكالح

قبل أن نخوض فى تفاصيل الحياة الداخلية للمعتقلين فى سـجن كوبـر، نقف لنعطى صورة سريعة عن تركيب السجن الداخلي. ينقسم سجن كوبر إلـى ثلاثة أقسام رئيسية. أولها القسم الغربي. ويتكون من المديرية وحوش الطـوارئ والورشة والكرنتينة والزنازين الغربية والمدرسة والمستشفى. والقسـم الثـانى السراية. وثالثها القسم الشرقي. ويتكون من زنازين البحريات وتقع فى الركـن الشمالي الشرقي. وهى مخصصة للذين حكم عليهم بالاعدام وينتظرون التـأييد النهائى، أو الذين يقضون فترات عقوبات صارمة. وبه أيضـا ثلاثـة أقسـام صغيرة تسمى الكرنتينات. ثم مجموعة من الزنازين تسمى الشـرقيات. وبـه أخيرا المشنقة والزنزانة التابعة لها. وانتشر المعتقلون أو الذيـن حكـم عليهم بالسجن فى أحداث يوليو على كل تلك الأقسـام مـاعدا الورشـة التـى بـها المنتظرون. وتوقفت المشنقة من كسر أعناق الرجال بعـد شـنق عبدالخـالق محجوب.

وفى كل قسم جاويش مسئول عنه مسئولية مباشرة، ويعاونه مجموعة من صف الضباط والجنود. وعلى رأسهم جميعا يأتى بتجاويش السجن ثم الصـول. وصف الضباط هؤلاء هم الذين يتعاملون مع المعتقلين تعـاملا مباشـرا، وهـم صلتهم بإدارة السجن العليا المكونة من مدير السجن ونوابـه ومجموعـة مـن الضباط. ويدخل صف الضباط والجنود إلى داخل السجن ويحمل كل واحد منهم عصا غليظة لزوم التعامل مع المجرمين. ولكن غير مسموح بدخولهم بسـلاح ناري خشية من أن يقتلعه أحد المجرمين ويحدث به فوضى. هذا هو كوبر الذى دخلناه فى يوليو.

عدنا إلى كوبر ووجدناه ليس كوبر الذى غادرناه قبل أيام خلـت. فقـد أرادت سلطة نميرى أن تذل المعتقلين وتصب عليهم أحـط صنـوف المهانـة. ولكنها بذلك المسلك لم تزدهم إلا ثباتا. ويبدو أن الإنسان فى لحظـات الشـدة يركبه عناد أو يقين أو إحساس بالتحدى الذى يتوجب الصمود أمامه .ويبـدو أن الإنسان فى تلك اللحظات يصبح أمام خيارين، إما ينهار أو يصمد، وهو الصمود الذى عبر عنه أحد السودانيين وهو يصادم مدافع الأتراك عام ١٨٢١ قـائلا:"إن عشت كان اسمى وان مت كان وسمى"، أي إذا عشت رفعت اسمي عاليـا وان مت فإن وقفتى هذه تصبح قلادة شرف.

ورغم الاجراءات الاستثنائية التى حاولت السلطة تطبيقها، فإن ضباط السجن وجنوده حاولوا قدر استطاعتهم أن يلتزموا بلائحة السجن حتى عند تطبيق تلك الاجراءات الاستثنائية. ورجال السجون دائما فى حرج. فهم يستقبلون رجالا يخرج بعضهم من السجن إلى السلطة، و آخرين يأتون إليهم من مواقع السلطة وربما عادوا إليها مرة أخرى. ولذلك يحاولون الالتزام بلائحة السجون فى تعاملهم مع مختلف المعتقلين. وقد نجح أغلبهم فى أداء تلك المهمة العسيرة. ولم يفهم بعض المعتقلين أن رجال السجن لا شأن لهم بالاعتقال، وإنما تنحصر مهمتهم فى حراسة من يرسل إليهم. وأدى سوء الفهم هذا إلى بعض اشتباكات غير المؤسسة مع رجال السجن، وكأنما هم السلطة التى أمرت بالاعتقال. وكان رجال السجن يفهمون تلك المشاعر ويحاولون التعامل مع المعتقلين السياسيين بأسلوب يختلف عن تعاملهم مع معتادى الإجرام. ولكنهم لا يسمحون بالفوضى التى تخل بلوائح السجن الذى يضم عناصر تواقة للفوضى. وكان بين رجال السجن قلة تشتط فى تطبيق اللائحة. وخرجنا من السجن وقد نمت لنا صداقات مع العديد من رجاله مازالت أواصرها ممتدة.

وكان ضباط السجن وجنوده أوسع أفقا من نميرى وزمرته. فقد أدركوا بثاقب نظرتهم وانتمائهم السودانى أن السلطة "ظل ضحى" وأنها "ما دوامة". وهناك قصة عن أحد ضباط السجن فى تلك الأيام التى توالت فيها الاعدامات. فقد كانت الأحكام تصدر من المحاكم الميدانية من معسكر الشجرة، ويرسل من حكم عليهم بالاعدام فى دبابة إلى السجن ليتم تنفيذ حكم الاعدام فورا. وهذا ما حدث بالنسبة لعبدالخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرنق. ثم جاءت دبابة تحمل دكتور مصطفى خوجلى، مما يعنى أنه محكوم عليه بالاعدام. وعندما قرأ النقيب عثمان عوض الله الحكم ووجد أنه السجن وليس الاعدام، قفز واحتضن مصطفى فى انفعال شديد. فقد كان الضابط فى أعماقه إنسانا، وكان سودانى الانتماء مدركا لتشابك العلاقات الاجتماعية التى تعلو فوق صخب الضجيج السياسى والهستيريا الاعلامية. وكان إعدام رجال هم رموز شامخة فى مجرى الحركة السياسية السودانية قد هزه وزلزل كيانه. فهذه أول مرة فى تاريخ السودان الحديث يعدم فيها سياسيون مدنيون. فعبر الضابط عن رفضه لانفلات نميرى الأرعن باحتضان دكتور مصطفى.

ذكرت هذه المقدمة لأننا عدنا إلى كوبر فى جو من الإرهاب ألقى بظلال كثيفة على حياتنا. وحاول بعض رجال السجن أن يكون مرنا ليخفف من غلواء ذلك الارهاب. ولم تخل قلة منهم من صرامة. وكان أحد صف الضباط يخال

أنه ظل السلطة فى السجن. فأطلقوا عليه لقب. "القذافى" لأن النظام الليبى شارك فى هزيمة حركة هاشم العطا، ولأن الرجل لا يخلو من شبه للزعيم الليبى.

عندما دخلنا كوبر هذه المرة وجدنا أن "النمرة" قد تغيرت إلى الأدنا. فأصبحت برش "حصيرة" وبطانية. واختفت أوانى الأكل واستبدلت "بكورة" من "الطلس" صرفت لكل معتقل واحدة. وكان ذلك الإناء "الكورة" يشرب بها المعتقل الماء والشاي. وهى الصحن الذى يأكل فيه طعامه. وهى المستودع الذى يحتفظ فيه بما تبقى له من أكل للعشاء. وقال أحدهم ساخرا إن الكورة هي شرف المعتقل وعليه أن يحافظ عليها جيدا.

وبعد أن صرفنا النمرة والكورة تقدمنا نحو السراية. وعند المدخل تعرضنا لتجربة قاسية. فقد أجرى حراس السجن تفتيشا شخصيا علينا. وتلفتنا لبعضنا البعض فى دهشة. فقد كان التفتيش الشخصى فى الماضى يطبق فقط على المجرمين بحثا عن سلاح أو مخدرات. ولم يحدث أن تم تفتيش معتقل سياسى من قبل. وأدركنا أن ذلك جزء من أسلوب الارهاب والإهانة التى يحاول نميرى فرضه علينا. وكان بعض حراس السجن يقومون بالتفتيش وهم فى حالة حرج.

وعندما دخلنا السجن وجدنا أن الحراس الذين كانوا يقفون فوق حيطانه ببنادقهم العادية قد استبدلوا بجنود من سلاح المظلات بمدافعهم الرشاشة. وهذا إجراء آخر يعكس رعب السلطة وجنونها والجو الهستيرى الذى ساد فى تلك الأيام. ويبدو أن نميرى كان يبحث عن ذريعة ليفرض جبروته وطغيانه ويكشف عن وجهه الكريه. فوجد ضالته فى انهزام حركة هاشم العطا. فلم تكن تلك الإجراءات مجرد رد فعل لحركة انقلابية فشلت بعد ثلاثة أيام، وإنما كانت تشكل منهجا متكاملا له أبعاد وغور، فلم يتعامل مع الأحداث كما فعل هاشم العطا وصحبه والذين لو أرادوا لأبادوا نميرى وجماعته فى بداية الانقلاب أو عند انهزامه، ولم تكن تنقصهم الشجاعة، فقد كانت وقفتهم فى المحاكم الميدانية وأمام الرصاص إحدى ملاحم البطولة السودانية.

ويبدو أن الجو الهستيرى قد تسرب إلى جنود المظلات. فقد سمع مجموعة من المعتقلين أحد أولئك الجند يقول لزميله وهما يقفان فوق سور السجن ليلا "لماذا لا نرش هؤلاء الشيوعيين ونرتاح منهم؟". ورغم أن التعليق يدخل فى باب الخبل، إلا أن تلك المجموعة من المعتقلين ظلت ساهرة خوفا من

أن يقوم ذلك المخبول بتنفيذ وعده. ولا اعتقد أن اللوم يقع على أولئك الجند، وانما على نميرى وزمرته الذين خلقوا أرضا تفرخ الخبل.

وفى فجر اليوم الأول أفقت فى الخامسة بعد نوم خزاز مثل كثيرين غيرى. وكانت أصوات الصفارات تنطلق من عدة جهات وحركة حراس السجن تملأ ساحة السراية. فقد كان ذلك وقت إجراء التمام الصباحى. وكان على المعتقلين أن يجلسوا القرفصاء فى صفوف وكل صف مكون من خمسة. ويبدو أن الرقم "خمسة" سهل فى التعامل الحسابى بالنسبة لحراس السجن. وتحكى قصة، لعلها من باب الدعابة التى يتسلى بها المعتقلون فى وحشتهم، تقول إن أحد الحراس جاء للتمام على مجموعة صغيرة مكونة من أربعة معتقلين. فعندما وجد أنهم يصطفون أربعة قال لهم المفروض أن تقفوا خمسات

وكان بعض المعتقلين لا يستطيعون الجلوس القرفصاء وكنت أحد أولئك المعوقين. فأحالونى على كنبة كان يجلس عليها جماعة من أمثالى. وكنت أنظر من تلك الكنبة إلى مئات المعتقلين وهم جلوس فى تلك الصفوف الخماسية. وكانوا رجالا لهم دورهم فى الحياة السياسية والفكرية والعلمية والإبداعية. فتلك الاجراءات الرعناء لن تذل أعناق الرجال. إن قدر الإنسان ينحط عندما يبيع ضميره وقلمه ويتحول إلى آلة صماء لا تعى سوى الانتقام اللارجولى والتصرفات المشطة حتى يدركه خواء النفس والعقل.

وكان الأكل جانبا كالحا فى حياة السجن على تلك الأيام. فقد تفتقت عبقرية نظام نميرى الإجرامي عن إجراء جديد وهو معاملة المعتقلين السياسيين بالنسبة للأكل مثل المجرمين، وهو إجراء لم تعرفه السجون حتى تحت الاستعمار البريطانى. وقد أجد صعوبة فى وصف الأكل الذى عشنا عليه عدة أسابيع. ولكن سأبذل جهدى لأقدم صورة قريبة من الواقع.

بعد شروق الشمس يدخل علينا مجموعة من "المنتظرين" الذين يقومون بخدمتنا، وهم يحملون عددا من الجرادل. وهذا هو الشاي. فيحمل كل معتقل كوريته ويذهب إلى الجردل المخصص له ويعطى ملعقتين (كمشتين) من الشاي الأحمر. وقد وصف أحد المعتقلين ذلك الشاي بأنه ماء دافئ مضروب بوهية صفراء، ثم تضاف إليه ذرات من السكر يظل المرء يلهث خلفها حتى يجد طعمها. أما اللبن فوا لهفى عليه فهو محرم. وذكرت أيام المديرية والشاي باللبن فطافت بذهنى معلوماتى الطائشة عن النظرية النسبية. كما عادتنى قصة

الرجل الجائع الذى أكل الرغيف على رائحة الشواء. فأخذت أبتلع ذلك الشاي علي أطياف ذكريات الشاي باللبن فى المنزل. ويبدو أن هناك متعا صغيرة فى الحياة لا نحس بأهميتها إلا عندما نفتقدها. فهي رغم صغرها إلا أنها تمتن الارتباط بين أجزاء الحياة. فالجندى السودانى فى قصيدة صلاح أحمد إبراهيم تذكر وطنه وهو فى ميدان المعركة فى الحرب العالمية الثانية فطافت به الذكرى إلى:

القهوة فوق سريرى البارد قدام الديوان
والفنجان ورا الفنجان

وعبر محجوب شريف عن مودته العميقة نحو شاي الصباح فى قصيدته التى يقول فيها:

أسمعنا يا ليل السجون
نحن بنحب شاي الصباح

ولكن الشاي فى كوبر لا يمت للشاي المعروف بصلة. حتى إن أحد المعتقلين قال إن هذا الشاي إذا أخذوه إلى معمل لفحصه فلن يتم التعرف عليه. ولعلي بهذا قد أثرت كوامن الذكرى لدى المعتقلين الذين تجرعوا ذلك الشاي فى خريف عام ١٩٧١. ولعل بعضهم يذكر التعليق اللاذع على كثرة شكوانا من الشاي. فقد قال أحدهم إننا أحسن حالا من غيرنا، وعلينا أن نتذكر الضباط و السياسيين الذين أعدموا، وأن نتذكر الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد، والذين ضربهم ابوالقاسم محمد إبراهيم وخالد حسن عباس وغيرهما، فهدأ روعنا ورحنا "نشفط" الشاي فى صمت.

وبعد ساعات من شرب الشاي يحين موعد الإفطار. فتدخل علينا الجرادل مرة أخرى. فنحمل الكورة ونتجه إليها. والإفطار عبارة عن فول، وهو نوع لا يوجد خارج أسوار السجن. ولا يعطى الوقت الكافى فى النار لينضج. أما الزيت الذى يصب عليه فهو عبارة عن مادة سرية لا تظهر إلا لمحة وتختفى. وهناك تعليق قاله فرانكو قرنق شقيق الشهيد جوزيف قرنق. فقد لفت أحد المعتقلين نظره إلى أن النمل هجم على كورته التى بها الفول قائلا "اعمل حسابك يا فرانكو من النمل". فرد عليه فرانكو بهدوء وحزم "النمل هو الذى أحسن يعمل حسابه."

أما الخبز فكان "الجراية". وعن الجراية حدث ولا حرج. فهي نوع فريد من الخبز يقوم بصناعته السجناء من الذرة التى تخبز فورا ولا تترك لتتخمر مثل الكسرة والعصيدة، فتبقى "فطيرة" وتصبح بعد خبزها مثل الحجارة بل أشد

قسوة "وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله". وللجراية خاصية غريبة، فعندما تغمسها في الفول أو في إدام آخر لا يعلق بها أي شئ، وكأن بها مادة طاردة. وحاول بعض المعتقلين معالجتها بمختلف الأساليب. فوضعوها في الماء لفترة طويلة ليشربوا عصيرها (الموص). وصنع بعضهم منها فتة. وكلها لم تجد في تطويعها. ولعله إذا ضرب بها شخص في رأسه لأصابه أذى جسيم. وقد أحجم العديد من المعتقلين عن أكلها. ولكني كنت من الذين تحايلوا عليها وأقبلوا على أكلها. وقد اندهش أحد الأصدقاء من تناولي لها. فقلت له "يا أخي ليس بالخبز وحده يحي الإنسان."

وعندما يحين موعد الغداء تدخل علينا الجرادل مرة ثالثة. فنحمل الكورة الشيطانية ونسير صوبها. وتحتوى الجرادل على ماء دافئ يسمى شورية، وتسبح فوقها قطع من الخضار الموسمي الرخيص، وغالبا ما يكون قرع أو باذنجان أو ملوخية. أما اللحم فيحمل على حده في صحون، ويعطى كل معتقل أربع لحمات في يده. فقال أحدهم إن هذه اللحمة مثل "التترا سايكلين " قطعة لحمة كل ست ساعات. وكان منظر اللحم في يد المعتقل مثيرا للاستيجان والضحك. أما نوع اللحم فكان أكثر إثارة للغرابة والعجب. فهو لحم من النوع الفدائي الذى يقاوم المضغ بضراوة. وقد تأذت أسنان بعض المعتقلين الذين لم يتريثوا في معالجة مضغه. وقد صاح أحد المعتقلين مرة قائلا "إن هذا اللحم قد أكل من قبل، انه لحم سكندهاند."Second hand" وكانت الصقور والغربان التي تحلق فوق السجن تعاف التقاطه عندما يتسلى المعتقلون برميه إليها. ولكن بعضنا تمكن من التحايل عليه حتى يجد طريقه إلى الحلقوم سربا.

واكتشفت أن فاروق محمد إبراهيم لا يأكل ذلك اللحم وأن نصيبه يستأثر به السجناء. وفاروق بطبعه قليل الأكل حتى عندما يكون الطعام شهيا. "فانعصرت" عليه وحولت نمرتي إلى جواره. وأعتقد فاروق أن ذلك التحول مودة مني، بينما كانت عيني على لحماته الأربع. و بقليل من التدبير تحولت حصته من اللحم إلى منفعتي فارتفع نصيبي إلى ثمان قطع. وعندما استبان فاروق ذلك التدبير قال بطريقته الساخرة "أكلت لحمي". ثم اتضح لي أن ذلك التدبير لم يكن قاصرا عليّ. فقد اكتشف آخرون أن لفاروق نظراء فانعصروا عليهم و"أكلوا لحمهم"، وهو تعبير سوداني يعني الشخص الذى يتناول سيرة إنسان بالنميمة والاغتياب .

وأذكر أن دكتور يحى عمر استعجب من أكلى لذلك اللحم، فصاح قائلا "يا زول انت بتعمل فى إيه، ده أكل تأكله" فقلت له هذا سجن وعلى الإنسان أن يحتفظ بأكبر قدر من اللياقة، وأنت طبيب أدرى منى بذلك. وبعد أسابيع خر فاروق مغشيا عليه من فقر الدم، أصيب يحى بدوار ولحقتهما مجموعة أخرى من الذين لا تحتمل أمعاؤهم مثل ذلك الطعام البامل.

أما العشاء فأمره عجب. فالسجن لا يقدم وجبة عشاء، وعلى المعتقلين أن يتحايلوا ولكن ليس فى الأمر حيلة. فكان علينا أن "نبيت القوى" فى أغلب الأحيان. ورغم أنها أيام قد تولت، إلا أنى أذكر أقاصيصها لأبين الفجور الذى صبغ الحياة السياسية فى ذلك الزمن الذى ارتفع بالخصومة السياسية إلى درجة اللدد و "إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم". كما قصدت أن أوضح كيف أن نميرى بلسانه الأغلف قد ابتدع هو وسدنته سوابق لإذلال أعزاء الرجال، وأنهم فتحوا الطريق لأساليب البطش السياسى. وليس هناك من يسعى إلى محاسبتهم على ما اقترفوه من ذنوب، فهذا أمر قد تخطته الحياة السياسية. ولكن لابد من إبراز ما حدث حتى يكون عبرة وعظة تساعد على استقامة الصراع السياسي. وظلت مشكلة العشاء بلا حل اللهم إلا بعض الحلول العشوائية. واذكر أنى كنت جائعا فى إحدى الليالي ولم أجد إداما أغمس فيه رغيفى. وكانت الجراية قد استبدلت بالرغيف. وكان يوم اختفاء الجراية اللعينة يوما مشهودا. وسمينا الرغيف "حلاوة رغيف".

وكنت أحمل رغيفى فى إحدى الليالي وأنا محتار. فأخبرنى أحدهم أن الفنان محمد وردى لديه ماء بالسكر يتعشى به، واقترح على أن أذهب إليه إذا كنت أعرفه. فقلت له انه لايعرفني ولكنى أعرفه وسأذهب إليه ولتكن هذه بداية لتعارفنا، وسوف أصبح من أكثر المعجبين حماسة لفنه. وأسرعت إلى وردى قبل أن يقضى على ماء السكر. ووجدته جالسا على الأرض مستغرقا فى أكله، فحييته. وقبل أن يستفيق من رد التحية جلست بجانبه واستمحته عذرا لمشاركته فى ماء السكر. وقبل أن يفيق من هذا الطلب كنت قد شرعت فى الأكل. وفى النهاية شكرته وتركته فى حيرة. وبعد أن تعارفنا فيما بعد، أصبحنا نذكر تلك الحادثة ونضحك. وفعلا كانت بداية لتعارف حميم مع وردى. وقد شرفنى بعد ذلك بسنوات بالغناء فى حفل زواج بنتى. فذكرت ماء السكر بالخير.

وكان يصرف للمعتقلين تمر مرة فى الأسبوع. وهو أردأ تمر أكلته فى حياتى. وقد وصفه أحد المعتقلين بأنه سوس مغلف بالتمر. وكان البعض لا

يأكله ، وهناك من يقف لهم بالمرصاد للاستحواذ على نصيبهم. وكان البعض الآخر يجرى له عملية نظافة طويلة. واكتشف البعض أن أفضل طريقة لأكله أن يتغطى بالبطانية ويأكله حتى لا يرى السوس، فكنا نسمع صوت التمر يتكسر تحت البطاطين.

وواجهتنا مشكلة الماء خصوصا فى أشهر الصيف وارتفاع درجات الحرارة. ولم يكن من اليسير الاحتفاظ بالماء فى الأزيار لفترة طويلة حتى يبرد مع ذلك الحشد. وظللنا نتجرع الماء الحار طوال أشهر الصيف، وهى تجربة مريرة لا يحس بوطأتها إلا الذين عانوها.

ولم يكن غسل الملابس بأقل مشقة من أشكال المعاناة الأخرى. فكان علينا أن نمارس ذلك بأنفسنا ومنا من يجهل الأمر ولعله لم يمارسه من قبل. وبيننا كبار السن الذين لا يحتملون ذلك العناء، ولكن تطوع بعض الشباب وحمل عنهم ذلك العبء وهو تصرف عكس روحا تعاونية رفيعة. وكان منظر البعض وهو يعانى من عملية الغسيل مسليا للآخرين.

وكانت زيارات الأسر ممنوعة فى الأشهر الأولى. ولكنى لن انسى موقفا للمرحوم أحمد صالح البشير وكان وقتها مديرا لمصلحة السجون. فجاءنى فى تلك الأيام الكالحة وسأل إن كانت لي حاجة يمكن أن يحضرها من المنزل ، فقد كان على صلات مع أهلى فى حي أبوروف فى أم درمان. فطلبت منه بعض الأشياء وأحضرها بالفعل فى اليوم التالى. وفعل نفس الشيء مع آخرين يعرف أهلهم. وكان لموقفه ذاك معان كبيرة فى تلك الأيام. فهو موقف نابع من صميم تقاليد أهل السودان الذين تشدهم الروابط ويهرعون إلى عون بعضهم فى أحلك الظروف متخطين وظائفهم ومستهينين برتبهم. لقد فشل نميرى وسوف يفشل غيره فى كسر متانة تلك الروابط، لأنها جزء أساسى من نسيج الحياة الاجتماعية فى بلادنا.

ومنع عنا الراديو والجرائد، حتى جرائد الحكومة التى كانت تنضح فى تلك الأيام بكل ما هو كريه ومذر. وقد تصفحت بعضها بعد سنوات فى دار الوثائق ووجدت فيها صورا لا تمت لخلق بلادنا بأي صلة. وحمدت الله أننا كنا فى السجن فى تلك الأيام فلم نقرأ ذلك الطفح النتن. ولعل السلطة لو سمحت بدخول الجرائد فى تلك الأيام لعملت على تحطيم روح الذين كانت أنفسهم مهتزة. ولكن رغبة السلطة العمياء لقطع صلة المعتقلين بالعالم الخارجى حجبت عنها رؤية ذلك الجانب المدمر لإعلامها.

ومرت بنا ثلاثة أحداث كان لكل منها وقعها القاسي في ذلك الجو الكئيب. أولها إعدام عبدالخالق محجوب ولمّا ينقضي على إقامتنا في السجن أسبوع، ولعله كان يوم ٢٨ يوليو. فعندما أفقنا صباح ذلك اليوم كانت هناك بقايا مطر انهمر في الليل. فسمعنا أن المطر كان ينسكب وأن الريح كانت تعصف في ساعة الإعدام لتجعل من تلك المأساة وكأنها إحدى مشاهد شكسبير التراجيدية التي تأبى الطبيعة إلا أن تشارك فيها. وحكى البعض أنهم أحسوا بالضجة والحركة وسمعوا صوت عبدالخالق يهتف وهو في طريقه إلى المشنقة قائلا "المجد لشعب السودان ... المجد لأمة السودان". وبموته انطفأ جانب مضيء وانهد ركن عزيز في نفوس رهط من أصدقائه ومحبيه. وكان موته فاجعة عمقت من كآبة ذلك المناخ المأساوي. ولكن أحداثها التي رويت ساعدت على تثبيت أقدامنا في واقع الردة المرير، إذ عرفنا كيف يموت الرجال. وكنت أجلس في فناء السجن بجوار العم شورة، وهو الذي حدثني عن تطابق الرعد والبرق مع لحظات الإعدام. فأنشدت له أبيات الجواهري شاعر العراق الفحل:

غادي الحياة تلك القبور وإن غدت
بالناضحات من الدماء عواشبا
وتعيد الوطن الخضيب بمثله
وطن سيبعث كل يوم خاضبا

وما زالت أحداث ذلك الصباح عالقة في نفسي وما انفكت تلازمها.

وكان الحادث الثاني زيارة نميري لسجن كوبر في ١٨ أغسطس ١٩٧١. ولا أدري أي نزق دفع به ليقوم بتلك الزيارة الرعناء، هل هناك من سبب سوى الغرور الأعمى؟. وسمعنا بخبر الزيارة قبل وقت قليل. فاجتمعت اللجنة القائدة للمعتقل وكنت عضوا فيها. ورأت اللجنة أن الهدف من الزيارة هو استفزاز المعتقلين بعدما تبين صمودهم الذي أدى مع الحملة العالمية إلى لجم الهستيريا. ورأت اللجنة أن التجاوب مع أي استفزاز قد يصدر من نميري لا يخدم غرضاً في هذه الظروف. وإذا سأل نميري عن الشيوعيين أو أي سؤال من هذا القبيل، فليتقدم له أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وأوصت المعتقلين بالتزام أعلى درجات ضبط النفس.

وعندما وصل نميري إلى السجن أمرونا بالخروج من العنابر والوقوف في فناء السراية. ودخل نميري ومعه أبوالقاسم محمد إبراهيم وبعض العسكريين، وكان يحف بهم رهط من جنود المظلات شارعين مدافعهم الرشاشة.

وبدأ أحد المعتقلين من خفيفي العقل بالتصفيق، ولكنه أحس أن تصفيقه نشاز، فانخرس وظل حيران أسفا. ووقف نميرى أمامنا بغرور شديد وزهو طفولي. ومازالت تلك الوقفة منطبعة في أذهان الكثيرين. وأدركت في تلك اللحظة كم هو صغير ولا يتحلى بأي صفة من صفات الرجال.

ثم تحدث نميرى بكثير من التحدى قائلا "الشيوعيين يطلعوا بره". وكانت نبوءة اللجنة صحيحة. وفى الحال تقدم له أعضاء اللجنة المركزية. وهم صلاح مازرى وعبدالمجيد شكاك وحسن قسم السيد وسعودى دراج. ولكن نظرته المتحدية استفزت مشاعر البعض ولم يلتزموا بقرار اللجنة. فقد فجر الموقف فيهم الحمية واللامبالاة. واعتبر كل واحد كأنما هو المقصود بذلك التحدى. فتقدم أمام نميرى تباعا: الحاج عبدالرحمن، على سعيد، عوض الصافى، عوض شرف الدين، مصطفى أحمد الشيخ، أسامة عبدالرحمن النور، نجم الدين سعيد، قريب الله الأنصاري، أبوزيد محمد صالح، حمزة زروق، محمد خلف الله ،أحمد المصطفي ، نيتو محمد نيتو، حسن شمت ،محمد محجوب وأسماء أخرى لا أذكرها. وكان خروج ذلك العدد وهم غير مكترثين بالعواقب صفعة لنميرى ومن معه. وخشى إذا أطال البقاء والتحدى أن يتضاعف العدد فأسرع الخطى خارجا واتجه ليطوف بالأقسام الأخرى. وكان يشير لمن يتعرف عليهم بالخروج بأسلوب صبيانى. فضم إليهم صلاح الزبير وشوقي ملاسي وضمهم إلى مجموعة السراية فبلغ العدد واحدا وعشرين. فأقتادوهم إلى مكاتب الادارة حيث كان نميرى يجلس فى مكتب مدير السجن. وأخذ يستدعيهم واحدا واحدا. وكان الحوار أو التحقيق لا يخلو من خبل. وكان كل واحد منهم رابط الجأش. فاكتفى باستدعاء خمسة أو ستة منهم. وخرج من السجن وهو يجرجر أذيال الخيبة بعد أن لقنه المعتقلون درسا آخر فى الصمود. فأمر إدارة السجن بوضعهم فى الحبس الانفرادى.

فاقتادوهم إلى زنازين البحريات حيث وضع كل اثنين فى زنزانة. وبعد أيام دخلوا فى إضراب مفتوح عن الطعام، استمر تسعة أيام فتدهورت حالتهم الصحية مما أرغم إدارة السجن على إخراجهم من الزنازين إلى مستشفى السجن فى يوم ٢٣ سبتمبر. وكان ذلك الانتقال بالنسبة لهم كالانتقال من "الجيتو" إلى فندق بخمسة نجوم. ففى المستشفى وجدوا الأسرة والمراوح والأكل الخاص. ويقع المستشفى بجوار السراية. فكنا على اتصال بهم من خلال فتحة فى شباك. وبدأت آثار الراحة عليهم. حقا لقد "جزاهم بما صبروا جنة وحريرا". ولكن بعد ثلاثة أسابيع أعيد أغلبهم إلى الزنازين مرة أخرى لفترة قصيرة. والسبب في

رجوعهم أن أسرّة المستشفي محدودة ، وهناك فى السراية مرضـــى تستدعي حالتهم نقلهم الي المستشفي. وكان الطبيب حائرا. فتطوع الشباب مـــن جماعـــة الزنازين بالعودة إليها. فصاح الطبيب " أرجعكم الزنازين ؟" فأصروا علي شـروط أن تبقي أبوابها مفتوحة طوال اليوم لا كما كانت من قبل حيث تفتح فقـــط فـــي الصباح لدقائق معدودة. وقد نشر عوض الصافى كتيبا عن هذه التجربـــة التـــى عاشها.

أما الحادث الثالث فكان ترحيل بعض المعتقلين إلى سجن "شالا" بـــالقرب من الفاشر فى أقصى غرب السودان. فقد تفتقت عبقرية النظام الإجرامية عـــن تلك الفكرة الشيطانية بغرض كسر روح المقاومة لدى المعتقلين بعد أن عجـــزت أن تفل حدها بالأساليب الأخرى. وأخطر الذين سيرحلون قبـــل ســـاعات مـــن السفر. فقد جاء أحد الضباط وتلا أسماءهم وأمرهم بإعداد أمتعتـــهم. وعندمـــا حان وقت الرحيل انفجرت الهتافات المدوية، وودعناهم فى جو مـــن الحماســـة البالغة لم تملك إدارة السجن أمامها إلا أن تقف مكتوفة الأيـــدى. وقـــد ســـجل محجوب شريف ذلك الرحيل فى قصيدتين سيأتي ذكرهما فى الفصـــل الخـــاص بشعره فى السجن.

هكذا أخذت الأحداث تتوإلى كالحة ملقية على ثقل السجن أثقالا أخـــرى. وكانت أسواره العالية تخنق الأنفاس. وكم عجبت من تلك الأسوار التى كنا نمر بها أيام الحرية فى غدونا ورواحنا فى مدينة الخرطوم بحرى دون أن ندرك أنها تفصل بين عالمين. فهي ليست مجرد بناء حجرى، وإنما حاجز أصـــم عـــاتى يفصل فصلا حادا بين دنيا الحرية وعـــالم الســـجن. ولكـــن الشـــاعر أحمـــد عبدالمعطى حجازى يرى أن السجن ليس فقط الباب والأسوار فيقول:

السجن ليس دائما بابا وسورا من حديد
والساق سجن حين لا تقوى على غير القعود

أما الشاعر الفيتوري فيرى أن للسجن مظهار أخرى فيقول :

ولأن الضعف سجن
ولأن الخوف سجن
ولأن الماضي مظلم سجن
بقيت أفريقيا مستعبدة
تنقب السجن إلى سجن جديد

وكم تعجبنى أبيات الشاعر أمل دنقل التى عبر فيها عن جدليـــة العلاقـة بيـن الجدران التى تخنق الحرية ودأب الإنسان الذى لا يفتر لينفذ من خلالها . يقول:

"أواه ما أقسى الجدار
عندما ينهض فى وجه الشروق
ربما ننفق كل العمر كي نثقب ثغرة
ليمر النور للأجيال مرة
ربما لم يكن هذا الجدار
ما عرفنا قيمة الضوء الطليق. "

وأخذنا نثقب فى ذلك الجدار بصبر ودأب وبإصرار وتحدى.

(٦)وكسرنا الحاجز وثبتنا في مستنقع الردة

كان صمود القوى السياسية التى حاول نميرى كسر شموخها صخرة صلدة انكسرت عندها أمواج الطيش المنفلت رغم عتوها. فقد صمد الضباط والجنود أمام المحاكم وفى مواجهة الاعدام رميا بالرصاص، فخطوا بصمودهم أسطرا وضاءة فى ملحمة البطولة السودانية. وارتفعت هامات السياسيين فى ساحات المحاكم وفوق أعواد المشانق، فغدا صمودهم أسطورة. وكان ثبات المعتقلين فى ذلك الزمن الغيهب ومضات ناصعة. فقد كان هدف نميرى أن يجعل السجن عقوبة صارمة لإذلال المعتقلين وعزلهم مما يؤدى فى النهاية إلى انكسارهم. ولكنهم سحقوا ذلك الهدف وبدأوا فى تحويل السجن إلى مكان للخلق والابداع. وطرح الحزب الشيوعى شعارا ينادى بتحويل السجن إلى جامعة للمعارف النظرية.

تكونت فى الحال لجنة لقيادة المعتقل من خمسة أعضاء على ما أذكر، وهم صلاح مازرى وخالد حسن التوم وعباس على ومحمد ميرغنى نقد المحامى وشخصى. وكان محمد ميرغنى نقد هو المتحدث باسم اللجنة أمام إدارة السجن وكان محمد ميرغنى مثالا للشجاعة والبساطة، حتى لتنساب مواقفه كأنها السهل الممتنع رحمه الله.

وقامت اللجنة بتوزيع المعتقلين إلى وحدات حسب عنابرهم. وتكونت لكل عنبر لجنة لإدارة شؤونه. وقد ساعدت تلك اللجان فى خلق النظام والاستقرار فى السراية التى كانت تموج بمئات المعتقلين من شتى القوى السياسية. وظهر الكميون "اللعين" مرة اخرى. وكان ظهوره هذه المرة ضرورة أكثر من الماضى. فهناك بعض المعتقلين "مقطوعين من شجرة" أو يعانون من ضيق ذات اليد. فلا يصلهم سجائر أو صابون او معجون ...الخ. فتكونت "كميونات" عديدة تضم مجموعات يسهل عليها التعامل مع بعضها البعض. على أن الكميون هو الكميون، خمس سيجارات فى اليوم يتلهف المعتقل للحصول عليها منذ الصباح الباكر.

وابتكر المعتقلون حيلا للتعامل مع كمية السجائر المحدودة. فضم كل اثنين سجائرهما فأصبح لهما عشر سيجارات يدخنانها مناصفة فى ساعات محددة عشر مرات فى اليوم. ولكن هذه الشراكة كانت تحدث جدلا مستمرا حول

الكمية التى دخنها كل واحد وهل هى النصف أو اكثر. فآثر بعضهم أن يدخن سيجارته حتى النصف ثم "يقرصها" أى يطفيها. ولكن هذه الطريقة تغير رائحة السجائر حيث يطغى النيكوتين على النصف "المنقرص"، فاستبدلت إلى قطع السيجارة إلى نصفين. ولكن هذه الطريقة تجعل للسيجارة عقبان وفى هذا تبديد.

ولم ينضم البعض إلى تلك الكميونات حيث كان لكل واحد منهم ظروفه الخاصة. كما أن إمكانياتهم كانت تسمح لهم بالحصول على أية كمية من السجائر من الخارج. فكانوا يدخنون طوال اليوم. ولم يبخل بعضهم بالتبرع للكميونات. وحاول البعض أن يتقرب من ذلك النفر بافتعال مواضيع للنقاش أو "الونسة" لعله يحظى بسيجارة أثناء انسجام الشخص الآخر فى الحديث. وتركزت مجموعة من أولئك المترفين فى خيمة نصبت فى فناء السراية الشمالى عندما ضاقت العنابر بمن فيها. وسميت تلك الخيمة "الكويت" للوفرة التى يتمتع بها سكانها. وكانت بحق كويتا فى صحراء. وكم كثر ارتيادى لها.

وتم تنظيم اجتماعات للوحدات لتناقش مشاكلها. والاجتماعات من الخصال المرزولة التى تصاحب الشيوعيين أينما حلوا. وكنت أعتقد أن جو المعتقل سوف يقضى عليها. ولكن ما إن استقرت الأحوال حتى برزت كالنبت الشيطانى. وكانت الاجتماعات شبه سرية، وكان الجو خانقا، ورغم ذلك كان يحلو للبعض الكلام ويطيل فيه، حتى لتحسب أن الامر أصبح ظاهرة باثولوجية وليست عملا سياسيا. ولم يجد التنبيه بعدم الاطالة إذ يبدو أن البعض أدمن الحديث المطول. ولكن كان لتلك الاجتماعات جوانبها الإيجابية. فقد خلقت رابطة بين المعتقلين، وساعدت على تخفيف السلبيات التى تبرز فى المعتقلات، ونظمت الحياة مما ساعد على تحمل غلواء السجن. فدفعت المعتقلين ليصبحوا قوة فى ذلك البحر المتلاطم حتى تستبين لهم شطآن الخلاص.

وكانت امكانيات العمل الثقافى محدودة. فلم تكن هناك كتب فى الأسابيع الاولى ولا ورق ولا أقلام. ولكن تم تنظيم برنامج للمحاضرات العامة يقدمها بعض المتخصصين كل فى مجاله. وقد بدأ برنامج المحاضرات فى اليوم الذى أعدم فيه عبدالخالق محجوب. فقد خيم على المعتقل جو من الاحباط. فبرز اقتراح يدعو للشروع فورا فى نشاط ثقافى للخروج من ذلك الجو. وبدأت اول محاضرة فى مساء نفس اليوم عن الإصلاح الزراعى قدمها فاروق محمد ابراهيم.

ولا أدرى أى شيطان جعل اللجنة المختصة بالمحاضرات تختارني لتقديم أول محاضرة في الصباح، وكان الموضوع التعليم. ونسيت أن الكتاب الذى نشرته قبل أشهر هو السبب فى اختيارى لأتحدث فى ذلك الجو الملغم "بالغواصات" والعناصر المشبوهة. فلعنت ذلك الكتاب. وحاولت أن "أتملص" بشتى الأعذار. ولكن اللجنة أصرت. وأخذت أعد للمحاضرة بمعاونة بعض المعلمين مثل أحمد سعد وشورة وسيد أحمد محمود. وفى صباح يوم المحاضرة أصابنى ألم حاد فى البطن، وهو أمر مألوف فى المعتقل فى تلك الأيام. فطلبت من سيد أحمد محمود أن يقدم المحاضرة نيابة عنى فهو خبير فى التعليم بحكم عمله الطويل فى التدريس والنقابة. واعتبر البعض أن مرضى ليس إلا حيلة. وبعد الإفطار قدم سيد أحمد المحاضرة تقديما جيدا خلق نقاشا أنعش جو المعتقل. وبعد نهاية المحاضرة أستدعى سيد أحمد إلى إدارة السجن حيث حكم عليه بالحبس الانفرادى فى زنازين البحريات لفترة أسبوع عليّ ما أذكر. واعتبرناه أحد شهداء الرأى. وحاول البعض أن يلقى باللائمة علي. ولكنى أكدت لهم انه لم يدر بخلدى أن الأمر سيقود إلى محنة. وبعد خروج سيد أحمد من الزنزانة جاء إلى السراية واتجه رأسا نحوى وهو يكاد يلتهمنى من الغضب. ولكنى طيبت خاطره وقدمت له سيجارة من سجائرى الخمس، وكان ذلك أقوى تعبير عن مشاعرى.

وتكون فى الأسبوع الأول من أغسطس فصل دراسى عن علم الوراثة باللغة العربية. أشرف عليه فاروق محمد ابراهيم. وكان الفصل يهدف إلى تعريب العلم وتدريسه. وكان الفصل يعقد فى الدور الثانى من السراية لمزيد من الحيطة. وشارك فيه عدد من الأساتذة مثل أحمد سعد وخالد حسن التوم ومحمد الامين التوم وعبدالكريم ميرغنى وشورة. وكان حائط العنبر يستعمل سبورة يكتب عليها بالفحم. فتنبهت إدارة السجن لذلك النشاط. فتمت مداهمة الفصل واعتقال فاروق وبدرالدين مدثر وعبدالله على ابراهيم وأودعوهم زنازين البحيرات.

وقدم (م . ن) وهو مزارع بمديرية الخرطوم محاضرة عن نزعة وحب السلطة عند المتنبى. وقدم العامل (ع . أ) محاضرة عن نجيب محفوظ عنوانها " نجيب محفوظ ضمير مصر". وكانت المحاضرتان فى تقدير الرفاعى من أميز المحاضرات التى اشتمل عليها البرنامج الثقافى فى الأشهر الأولى للردة.

واستمرت المحاضرات دون توقف. ولكن كانت تتخذ الاحتياطات

اللازمة ومراقبة باب السراية، حتى إذا جاء أحد الحراس يتوقف المحاضر ويجلس مع المعتقلين حتى لا يتعرفوا عليه. ثم تحولت المحاضرات العامة إلى ندوات مصغرة فى العنابر. فلم يترك المعتقلون منفذا إلا ولجوا منه لكسر حاجز الرتابة.

ثم دخلت الكتب وكانت فتحا فى عالم السجن. ولا أذكر متى دخلت. ولكنها بدأت تتسرب تدريجيا حتى سمح بها وعمت المعتقل. وكانت إدارة السجن تتفحص كل كتاب حتى لا تدخل كتب تسمم أفكار المعتقلين. وهل كان المعتقلون عرضة لأن تتسمم أفكارهم وكلهم راشد العقل؟ وإذا كانت هناك أفكار خطيرة يخشى منها، فإن فى عقول المعتقلين من الأفكار ما هو أخطر مما فى الكتب التى منعت. "فالنار فى عقول الرجال" كما قال دستوفسكى. وأدت تلك الرقابة إلى هبوط مستوى الكتب التى كانت تدخل السراية. ولكن وجود أى كتاب يقرأ كان منفذا رحبا مهما كان نوعه. وكانت فرصة للتعرف على الكتب الهابطة التى لم نكن نحفل بيا من قبل. وساعدت تلك الكتب أيضا على كسر حاجز الرتابة، فقد أدخلتنا عالما رحبا من المتعة. ومنحتنا ظروف السجن فرصة للقراءة بتأمل لا يتوفر فى صخب الحياة. ولعل هذا من أسباب خلوة المتصوفة للقراءة بتأمل عميق.

وكان العثور على كتاب ضخم يعتبر كنزا، لأنه يوفر مشقة البحث عن كتاب آخر لفترة طويلة. وكنا نتصيد أخبار الكتب الجديدة ونسعى سعيا حثيثا لمعرفة صاحبها حتى نكون فى أول قائمة المنتظرين.

ولاحق "الكميون" الكتب. ولكنه كان كميونا رائعا يختلف عن كميوز السجائر اللعين. على أن لكل كميون مثالبه. فالكتاب الذى يدخل الكميون لا يعثر صاحبه له على أثر، ويبقى متجولا من قارىء لقارئ ، وأحيانا يهاجر إلى قسم آخر ويختفى أثره. وكانت المشاجرات حول الكتب لا تفتأ تنفجر من حين لحين. واكتشفت أن إمدادات عبدالكريم ميرغنى من الكتب لاتنقطع. فهو قارئ نهم. فوثقت علاقتى معه و"لزقت" عليه كما فعلت مع فاروق فى موضوع اللحم. لقد كانت ساعات الاختلاء مع كتاب من أمتع لحظات السجن.

وذكر عبدالقادر الرفاعى، فى معرض تذكيرى بأحداث تلك الفترة، بعض الكتب التى ملأت دنيا المعتقل. منها ديوان "قلبى وغازله الثوب الازرق" للشاعر محمد إبراهيم أبوسنة، و"ثقافتنا بين نعم ولا" لغالى شكرى، وزمن الشعر

لأدونيس، ومسرحية "بعد أن يموت الملك" لصلاح عبدالصبور، وكتابان بالإنجليزية أحدهما "اكتشاف الهند" والآخر حوار مع ألبندى. فقد زادت تلك الكتب من حيوية المعتقلين، فطفقوا يؤلفون المسرحيات ويخرجون أخرى. كانوا مجموعة من الشباب منهم الشاعر عبدالله جلاب والقاص محجوب الشعرانى والحويج وعبدالله على إبراهيم ومحجوب الحارث وحافظ الطويل. هذا بجانب مجموعة الكورال فى الغناء والأناشيد.

وكون مجموعات من المعتقلين أندية خاصة. فكانت كل مجموعة لها ميول واهتمامات متقاربة تختار لها مكانا فى ساحة السجن تجلس فيه. واختارت كل مجموعة لناديها اسما. فهناك نادى "الأرز" وعضويته من الفنانين والكتاب والأدباء والشعراء، من أبرزهم محمد وردى وعبدالقادر الرفاعى ومحمد ميرغنى نقد وحمزة زروق والشاعر صلاح سعيد. وهناك نادى "التعريفة" ويتكون من خريجى الاتحاد السوفيتى منهم عبدالرحمن أحمد وأسامة عبدالرحمن النور وحافظ عباس وصلاح عبدالكريم. وسمي النادي بهذا الاسم لأن أعضاءه وجدوو تعريفة (عملة معدنية من فئة صغيرة) فى المكان. ثم نادى "الحديد" وأعضاؤه من عمال وموظفى السكة الحديد. ثم نادى "الشهداء" وعضويته من العناصر النشطة فى اتحاد عام الموظفين والمهنيين. وكان لكل ناد برنامجه الثقافى والرياضى. وكان أعضاء الأندية يتبادلون الزيارات فيما بينهم. إنه إقحام خلاق لحياة اجتماعية فى مكان عزت فيه الحياة الاجتماعية. وكانت المجموعات التى ليس لها ناد تتلقى بين الحين والآخر دعوة من إحدى تلك الأندية. وأصبحت تلك الدعوات تجد الاستجابة السريعة بعد أن بدأت تقدم الشاى بالسكر.

وكانت ألعاب التسلية ممنوعة. ولكنها أخذت تتسرب بمختلف الطرق. فقد ابتكر بعض المعتقلين من أصحاب المهارات الفنية بعض الألعاب مستعملين فى صناعتها مواد بدائية كانت متوفرة فى السجن. فصنعوا شطرنج من عجين "الجراية" الأحمر ولب الرغيف الابيض. وكان استعمال الجراية فى عمل الشطرنج أبرع ما استطاعه المعتقلون من أسلوب فى التعامل معها. وكان ذلك الشطرنج عملا فنيا فى غاية الروعة. وحقا إن الحاجة أم الاختراع. ثم صنعوا ضمنة (دمنو) من علب السجائر الفارغة. وكانت صناعتها أكثر تعقيدا من الشطرنج. ولا أدرى كيف صنعوها . وبما أني مغرم بلعبة الضمنة ، فقد حصلت على أول ضمنة مصنعة فى السجن. وكنا نلعب بها مجموعة ضمت حسن أبوجبل ومحمد نور عثمان وبدوى وداعة الله. وكانت منافسة حامية تبدأ

بعد شرب شاى الصباح وتستمر حتى موعد الافطار. وتحلق حولنا المشجعون والمتفرجون. وأخذت الحلقة تتسع وانضم اليها أبطال جدد. وعندما ذابت الضمنة من كثرة الاستعمال أمدونا بواحدة جديدة.

وظهرت الكتشينة. فقد تمكن بعض المعتقلين من شراء مجموعة منها سرا من السجناء الذين كانوا يترددون على السراية للقيام بأعمال النظافة. وكان السجائر هو العملة المتداولة فى السجن. واستغل السجناء الحاجة الماسة للكتشينة فرفعوا أسعارها بدرجة مبالغة. ولذلك لم يحصل عليها إلا أصحاب اليسار. ثم قل الطلب عليها فانخفض سعرها من سبعة صناديق سجائر إلى صندوق واحد. وكان علينا أن نحافظ على تلك الكتشينات حتى لا تقع فى أعين الحراس فيصادروها. وامتد استعمال السجائر لشراء الزيت والبصل والشطة والسكر. وعالم السجن هو عالم السوق الأسود، ولكن عملته ليست الدولار. ولا أدرى كيف تمكن أولئك السجناء من الدخول بتلك الأشياء الممنوعة رغم التفتيش الجسدى الدقيق الذى كانوا يتعرضون له قبل دخولهم السراية.

وأدت تلك الألعاب إلى انفراج كبير فى حياة السجن الرتيبة. وبعد فترة سمحت السلطات بدخولها بطريقة رسمية. فأصبحت تقام المباريات بين العنابر فى مختلف الألعاب. وازدحمت الحياة بالنشاط، حتى لم يعد هناك فى بعض الأحيان فراغ. إن السلاح الفتاك ضد رتابة السجن هو تنظيم الوقت تنظيما دقيقا.

وانفرجت أزمة الشاى بعد السماح بدخول السكر من الخارج. وكان الأستاذ عبدالكريم ميرغنى أكثر المعتقلين ابتهاجا بذلك الانفراج. فهو مولع بشرب الشاى. فكان وقع الحرمان عليه ثقيلا، حتى صرح بأنه متى ما خرج من السجن فسوف يحيط نفسه بأعداد من أوعية الشاي ليعوض هذا الحرمان. وعندما زرته بعد فترة فى منزله وجدته فعلا محاطا بعدد من آنية الشاى من كبابى و"براريد" وترموس. وذكرت له وعده فى السجن ووجدته ذاكرا له. وأصبح الشاي صفة ملازمة لعبد الكريم . ورثاه محجوب شريف بقصيدة رائعة قال فيها :

وكم فى الذهن عالق
ثرثرة المعالق
والشاي اللطيف
تصطف الكبابى
أجمل من صبايا

بينات الروابى والظل الوريف
أحمر زاهى باهى
يلفت لانتباهى

هل سكر زيادة أم سكر حفيف ؟

وبدأت ليالى السمر. وكان فى السراية مسرح يقيم عليه السجناء ليالى سمرهم فاستغله المعتقلون. وكان معنا بعض المسرحيين والفنانين والاعلاميين من محترفين وهواة. منهم إبراهيم الجزولى وعثمان المشهور باسم "عثمان أمان" ومحجوب الحارث وعبدالله على إبراهيم. وكان من حسن الحظ أن يكون معنا محمد وردى ومحمد الأمين ولكل منهما صوته المتميز بقوته، ولكل منهما إبداعه المتميز فى مجال الانشودة الوطنية. فما إن يغنى أحدهما حتى تهتز جنبات السجن، بل يمتد صوتهما خارج الأسوار فيقف المارة يستمعون إلى وردى وأبو الامين وهما خلف القضبان. وكانت أكثر الليالى اثارة يوم غنى وردى مقطعا من قصيدة على عبدالقيوم الذى يقول فيه:

أى المشارق لم نغازل شمسها
ونميط على زيف الغموض خمارها
أى المشانق لم نزلزل بالثبات وقارها
أى الأناشيد السماويات لم نشدد.
لألحان الجديد بشاشة أوتارها

وصفق الناس وهتفوا. وكنت على يقين أن صدور بعضهم كانت تغلى كالمرجل وتنفجر حمما، وبعضهم غالب الدمع فغلبه الدمع. لقد تحولت الهزيمة وحالة والقنوط واليأس التى رانت على القلوب لمدى إلى قوة صامدة من التحدى.

وبلغت الإثارة قمة أخرى عندما غنى وردى ومحمد الامين مقطعا من قصيدة محمد المكى إبراهيم "جيل العطاء" قال فيه:

من غيرنا يعطى لهذا الشعب
معنى أن يعيش وينتصر
من غيرنا ليقرر التاريخ والقيم الجديدة والسير

من غيرنا لصياغة الدنيا وتجديد الحـــــــــياة القادمـــــــة
جيل العطـــــــاء المستجيش ضراوة ومصـــــــــادمـــــــة
المســـــــــتميت علـــــى المــــــــــــــــــبادئ
مـــــؤمـــــــــــنا

المشرئب إلى النجوم لينتقى صدر السماء لشـــــــعبنا
جـــيلـــى انـــــا

وبدأ وردى فى تلحين قصيدة الشاعر الفلسطينى سميح القاسم فى رثاء عبدالخالق محجوب التى يقول فى مطلعها:

شهقت غابة مانجـــو ناضـــــــجة
ياحبيبى
خض أسراب العصـــــــافير حجر
شهقت افريقيا الأخرى وصاحت
ياحبيبى -
ونعاك الضوء للضوء نداء لا خبر

واستمعت إلى بدايات التلحين. ولكن وردى لم يكملها. وسألته عنها بعد عشرين سنة فقال إن الأحداث الفنية تخطتها.

وغنى محمد الأمين لأول مرة أغنية "أشوفك بكرة فى الموعد". وشاركه المستمعون فى كورس جماعى بديلا عن الآلات الموسيقية. وكانت قد انتشرت إشاعة فى المعتقل إنه فى العاشر من الشهر سيتم الافراج عن المعتقلين. والإشاعة لا تخلو من سذاجة، ولكنها وجدت هوى فى نفوس البعض، بل أصبحت الشغل الشاغل لديهم. وكان فى أغنية محمد الامين مقطعا يقول "ويا يوم بكرة ماتسرع تخفف لي نار وجدى" فعندما غناه قال "ويا يوم عشرة ماتسرع ..." فضج المكان بالضحك العالى.

وأسهم الموسيقار جمعة جابر فى نشر الوعى الموسيقى فى المعتقل بما قدم من محاضرات عن الغناء والرقص فى جنوب السودان وغربه. وقام بتدريس المارشات العسكرية التى بدأ عزفها فى قوة دفاع السودان. ولحن بعض الأناشيد. وبرزت له موهبة فى تأليف الشعر "الحلمنتيشى" فاشتهرت قصيدته التى تقول:

شفت الديك الأمو نملة
رأيناه في شكل قملة
سمين وأمين في شكل بمبر
الماكنتوش راكبلو هنتر
شويناه في يوليو
نمر دوْدوْ للريكة شنقل

وكان لها لحن راقص خفيف، ولكم ترنمنا بها. ولكن لا تسـألنى عن معانيها. وربما يعلمه البعض او أن سرها قد ضاع برحيل جمعة عليه رحمة الله.

وكان الاحتفال بذكرى ثورة الحادى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧١م معلما هاما فى تاريخ المعتقل. فمنذ فترة نشط المعتقلون للإعداد لذلك اليوم. واشتمل برنامج الاحتفال على معارض وندوات ومباريات فى حدود الإمكانيات الشحيحة. وخرج اليوم فى ثوب قشيب. وبلغ الحفل قمته عندما غنى وردى قصيدة محجوب شريف التى مطلعها:

أكتوبر ديناميتنا
ديناميتنا ساعة الصفر ركيزة بيتنا

وتناقل الناس خارج المعتقل خبر الأغنية. وأصبحت نشيدا رسميا للمعتقل يودع به كل من يطلق سراحه. فما إن نسمعها فى قسم آخر حتى نعلم أن هناك إفراجا .. وكنت أتوق مثل غيرى لليوم الذى نودع فيه بذلك النشيد .

والحديث عن المعارض يقود مرة أخرى للحديث عن قدرات المعتقلين فى الخلق والإبداع. ومازلت أذكر المعرض الذى كان شعاره "معرض الانسان الكوبرى". فقد عرضت فيه أشياء عادية، ولكنها بالنسبة لسكان كوبر كانت أشياء نادرة. فهناك قطعة رغيف أو "حلاوة رغيف"، وبعض المأكولات التى كدنا ننساها مثل البسكويت والطحنية. وعرضت عملة من فئة الجنيه وكان منظره بحق غريب بعد طول غياب. ووجد السجائر مكانه فى المعرض وعرضت بعض الأعمال الفنية مثل الشطرنج والضمنة وتلفون مصنوع من الصابون وكان جيد الصنع حتى تكاد تسمع رنينه. وعندما رآه البتجاويش لوج

وهو المسئول عن السراية عقدت الدهشة لسانه وصاح : "شيوعيين دخلوا تلفون في السجن " . واختطف الجهاز وانطلق به نحو الإدارة. وفشلت المحاولات بإقناعه أنه مجرد لعبة. وكان الغرض من المعرض أن يعيد للمعتقلين صور الأشياء التيغابت عنهم ويذكرهم بها.

وظهرت "المجلة الناطقة". والفكرة اقترحها حسن التوم الطالب بالثانوى العالى ولعله كان أصغر معتقل. وعرضت الفكرة على المكتب وأجازها. وتكونت لها هيئة تحرير برئاسة مبارك بشرى وعضوية ممثل لكل واحد من الأندية. واطلق عليها اسم "مجلة الرفاق". تصدر أسبوعيا مساء كل خميس. وهى مجلة سياسية اجتماعية فنية. وتجاوزت صفحاتها العشر.

والمجلة فكرة بارعة لتخطي صحراء الجدب الثقافى وانعدام الأقلام والورق. فالمجلة تعتمد على الالقاء، حيث يقف شخص يذكر اسم المجلة ورقم العدد وتاريخ الصدور. ثم يعقبه شخص آخر هو الصفحة الثنية وبها حكمة العدد. ثم تأتى الصفحة الثالثة ويتلو شخص آخر كلمة العدد. وهكذا تتوالى الصفحات وقد بذل محرروها جهدا كبيرا فى إخراجها بشكل مشرف. وانتقلت الفكرة إلى بعض الأقسام الأخرى فى السجن. فصدرت مجلة "الكبسولة" فى المستشفى، و"الشهداء" فى الكرنتينة ب/ج ، كما انتقلت الفكرة إلى بعض سجون السودان.

وبدأت تتسرب الأقلام والورق سرا. فكان دخولها فتحا آخر. والشخص الذى يمتلك قلما يصبح محط اهتمام المعتقلين. ويعتبر تأمين القلم فى مرتبة تأمين مكنة الطباعة السرية، وذلك حتى لا يصادر. فقد كانت إدارة السجن تقوم بتفتيش مفاجىء "كشة" على أقسام السجن ومصادرة الممنوعات. والكشة إجراء معروف فى السجن الغرض منه إخلاء السجن من الأشياء الخطيرة التى سربها السجناء والتى تهدد الأمن مثل السكاكين والآلات الحادة والمخدرات. ولم تكن لدينا مثل تلك الأشياء. ولكن يبدو أن السلطة أوعزت لإدارة السجن بالاكثار من تلك الكشات، لأن إدارة السجن لم تكن حريصة على مصادرة الأقلام والأوراق لأنها لا تهدد أمن السجن ولا تستعمل فى المشاجرات لأنه لم تكن هناك أصلا مشاجرات كالتى كانت تقع بين السجناء.

وتحضرنى هنا قصة خاصة بالبتجاويش "لوج". والعم لوج شخصية هامة بالنسبة للسجن. فهو صف الضابط المسئول مسئولية مباشرة عن المعتقلين. وكانت له علاقة بالمعتقلين السياسيين منذ أيام الحكم العسكرى الاول (١٩٥٨ -

١٩٦٤م). وكان بحكم عمله الطويل فى السجون يحب الانضباط ويعرف اللوائح ويدرك حيل السجناء. ويعطيك انطباعا ظاهريا بالصرامة الشديدة. ويتمتع ببنية جسدية قوية، وهى صفة ملازمة لأغلب حراس السجن. ولكن لوج كان يحمل داخله قلبا إنسانيا رقيقا. وقد انجلت تلك الرقة فى إحدى المرات. كان ذلك عندما صدرت أول قائمة بإطلاق سراح بعض المعتقلين. فجاء لوج يحمل القائمة وعلامات البشر بادية عليه. وعندما شاهد الحماسة التى ودع بها المعتقلون زملاءهم الذين أفرج عنهم، جرت الدموع من عينيه . لقد طغت العاطفة الإنسانية الرقيقة على تلك الصرامة وتجلى لوج الإنسان، وكم كنا نحبه. وعندما أحيل إلى التقاعد فى السبعينات جاء إلى المكتبة التى كنا نملكها أبوزيد وأنا. وبحث له أبوزيد عن عمل فى أحد المصانع. كانت هذه المقدمة ضرورية للتعريف بلوج أولا ولذكر قصته فى تطبيق اللوائح.

كان لوج يتجول فى أنحاء السراية عندما وجد لدى أحد المعتقلين ورقة مكتوب عليها بالحبر الأحمر. وكان عثوره عليها بمحض الصدفة لأن المعتقل كان شاهرا الورقة عندما وقف لوج أمامه. وتمكن المعتقل من اخفاء القلم لأنه الأهم. فذكر له لوج ان الكتابة بالقلم ممنوعة. فأراد المعتقل أن يكون ذكيا، فقال له إن الكتابة ليست بقلم وإنما بالشطة. ولم يفطن إلى أنه وقع فى خطأ آخر لأن الشطة أيضا ممنوعة. فنظر إليه لوج بكثير من الخبث وقال له "والشتة ما ممنوع !". ثم ضحك وذهب.

وهناك قصة أخري عن العم لوج ،فقد تمكن المعتقلون من صنع سخّان كهربائي من أسلاك ذات مقاومة عالية ووصلوها مع الطوب الأحمر ووضعوا جردل الماء علي الطوب فكان التيار الكهربائي يصل الجردل مباشرة. وكان السخان في مسجد السراية. ولاحظ لوج أن المعتقلين يترددون علي المسجد عند صلاة الفجر بطريقة غير عادية وهم يحملون الجرادل. فدبر كمينا في الصباح وهاجم المكان . فعندما وجد الماء يغلي في الجردل فوق الطوب صاح " شيوعيين يولع نار في حجر ؟؟" . وحاول اختطاف الجردل ، ولو فعل لصعقه التيار الكهربائي. فصاح فيه أحد المعتقلين مذعورا "ياعم لوج حاسب " ، وانقض علي السلك وفصل التيار الكهربائي. واستشاط لوج غضبا لاعتقاده أن المعتقل ينوي مقاومته. وعندما تبين له أن الشاب خاطر بحياته حتي لايصعقه التيار الكهربائي اغرورقت عيناه بالدموع.

وكان الراديو أيضا ممنوعا. وكنت قد تمكنت من تهريب راديـــو إلـــى داخل كوبر ولعله أول راديو يدخل السجن أو من الرواديو النادرة. وكنـــا قـــد حصلنا على الراديو سرا أثناء وجودنا فى المستشفى العسكرى فـــى أم درمـــان. وكدنا أن نفتقده فى إحدى "الكشات" على المستشفى، ولكنى تمكنت من إخفائه فى حوض الحمام. وقد وصف مبارك أحمد صالح فى كتيبه عـــن السـجن ذلـــك الحادث بالتفصيل. ثم طلبوا منا فجأة العودة إلى كوبر. ولم نـــدر مـــاذا نفعـــل بالراديو. فقررت أن أغامر وأحمله معى إلى السجن. فربطته على ساقى وثبته بشريط جراحة ولبست الجلباب. وعندما هممت بركوب لورى الكومر، أراد أحد المعتقلين أن يساعدنى على الصعود رأفة بى وحاول أن يرفع الجلباب فأنتهرتـــه حتى قفز مفزوعا وهو فى حيرة من سلوكى الخشن. وكان لابد أن أكون معـــه حادا فى تلك اللحظة وأتجاهل مشاعره، لأنه إذا رفع الجلباب لظهر الراديو بكـــل جلاله أمام الحراس. وعندما استقر بنا المقام على ظهر اللورى، ورأيت وجهـــه مكفهرا، دنوت منه ووضحت له الأمر فاستغرق فى الضحك.

وعندما وصلنا كوبر كان عليّ أن أمشى مسافة طويلة والراديو مربـــوط بساقى. فكان على أن أمشى بطريقة لا تجعله يصطك بين ساقيّ. فبالغت فـــى مشيتى العرجاء التى كانت تلازمنى لإصابتى بانزلاق الغضـــروف. ووصلـــت العنبر فى مستشفى السجن بسلام. وسلمت الراديو إلى صلاح مازرى. فكـــان حريصا عليه. فما أن تنتهى مهمة الاستماع له حتى يدفنه فى صفيحـــة الســكر الخاص بالكميون. وجاءت إحـــدى الكشـــات . ولا أدرى أى شـيطان هـــدى الحراس إلى صفيحة السكر، فأستخرجوا الراديو من أحشائها. وحزنا لفقده.

وابتكر المعتقلون وسيلة أخرى لتحدى السلطة واختراق جدران الرتابـــة. فقد كان المعتقلون مقسمين على مختلف أقسام كوبر التى يفصل بينـــها حيطانـــه السميكة العالية، وليس من وسيلة للقائهم إلا فى العيادة الطبية أو مكـــاتب الإدارة. وكانت تلك لقاءات عابرة وتتم بمحض الصدفة فابتدعوا طريقة للاتصال المعنوى الذى يشد من أزرهم ويبرز تضامنهم وصلابتهم. فبـــدأت التحايـــا المســـائية. وكانت بدايتها فى مساء اليوم الذى تم فيه ترحيل بعض المعتقليـــن إلـــى ســـجن "شالا" ونقل البعض الآخر إلى قسم المدرسة فى الجانب الغربـــى مـــن كوبـــر. وأراد المعتقلون فى المدرسة أن يعلموا زملاءهم فى السراية بأنهم معـــهم فـــى كوبر ولم يرحلوا إلى مكان آخر. كانت تلك هى البداية.

تجمع المعتقلون فى المدرسة فى المساء وأخذوا ينشدون معـــا وبصـــوت مرتفع نشيدا من أناشيد الشيوعيين العراقيين يقول:

السجن ليس لنا نحـــن الأباه
السجـــن للمجـــــــــرمين الطغاه
ولكننا سنصمــــــد سنصمــــــد
وإن لنا مســــــتقبلا ســـــــيخلد
يوم تنصب المشانق - لمن
للمجـــــــــــــرمين الطغـــــــاة

ثم أخذوا يصيحون بأعلى صوتهم "المعتقلون فى المدرسة يحيون المعتقلين فـــى السراية". ولكن السراية لم تستجب لهم لعدم وصول أصواتهم إليها لبعد المسـافة بين القسمين. فوجهوا التحية للمعتقلين بالمستشفى الذى يقع بينهم وبين الســراية. فرد عليهم المعتقلون بالمستشفى. وقاموا بنقل التحيـــة إلـــى الســـراية بنفـــس الأسلوب. وكان النشيد يتردد من قسم لآخر وتخترق أصداؤه الجدران. وكـانت التحايا المسائية شكلا من التحدى الصارخ الذى أكد عزم المعتقلين على الصمود وتصميمهم على مجابهة عنت السجن. وحاولت إدارة السجن إيقافـــها ولكنـــها فشلت.

وأخيرا صرحت إدارة السجن بإقامة فصول دراسية. فبلغ النشاط الثقـافى ذراه العالية. فكانت هناك فصول للغات تبدأ بعد شاى الصباح، ويـــدرس فيـــها الإنجليزية والفرنسية والروسية الألمانية. ثم تتلوها حلقات دراسية وســـمنارات. وانخرط الناس فى ذلك النشاط بجد واهتمام. وفى إحدى المرات دخـــل أحمـد صالح البشير مدير السجون السراية ووجد النشاط فى تلك الحلقات على أشـــده. فعلق قائلا "إيه الحكاية، لقد تحول كوبر إلى جامعة، الأحسن نسميه كوبرهاجن". وانتشرت تلك التسمية الساخرة.

وأصبحت ممارسة الرياضة نشاطا منتظما بالذات كرة القدم أو "الدافورى" وكانت الكرة مصنوعة من شراب محشو بخرق بالية ثم يخاط مدخله. ولا أدرى من أين جيىء بتلك المواد. فما نشعر إلا و"الدافورى" ينطلق فى ساحة الســراية فى عصر أحدى الأيام. ثم تطور "الدافورى" وأصبح مباريات منظمة وتكـــون اتحاد عام كرة القدم برئاسة على صيام لتنظيم المباريات وتقديم الكؤوس والهدايا فى المناسبات مثل ذكرى ثورة ٢١ اكتوبر وأول مايو ويوم المراة العالمى.

وكانت مباريات الدافورى حامية الوطيس. ولا أدرى لماذا تبعث كرة القدم هذه الحماسة التى تصل فى دور الرياضة درجة الهستيريا فى بعض الأحيان. هل فيها سر لم ندركه نحن الذين حرمنا فن المشاهدة؟ أم أن تلك الحماسة فيها متنفس عن أشياء مكبوته لأتجد لها مخرجا إلا في مباريات كرة القدم؟ أم أن المتفرجين يجدون متعة في متابعة الفن الكروي الذي لانملك مقومات فهمه؟ المهم في الأمر أن مباريات "الدافوري" خلقت حيويه في السراية.

وابتدع المعتقلون من الشباب شيئا آخر بالنسبة "للدافوري" كشف عن قدرتهم للابتكار. فقد اختاروا لفرقهم أسماء من بين الشخصيات في المعتقل التي لها وزنها التاريخي الاجتماعي. وكان ذلك تكريما لاؤلنك الرجال فيه صدق وبراعة. ولعل ذلك التكريم أكثر جلالا من الأوسمة والألقاب التي يتحلي بها بعض الذين لا يحترمون أنفسهم والذين يعلقون الأوسمة علي صدورهم بينما يحملون المذلة علي جباههم ناهيك عن احترام الناس لهم. فكانت تلك الفرق تحمل أسماء مثل فريق شورة وعبد الكريم ميرغني وصلاح حسن وأحمد سعد وأسماء أخري لا أذكرها. وكانوا يخرجون عصرا لمشاهدة الفرق التي تحمل أسماءهم. وانخرطوا في التشجيع ، وتوهم بعضهم أنه عاد لأيام الشباب. وانصبغ جو السراية بألوان البهجة والمرح.

ولعبة الدافوري فيها شيء من خشونة وربما كثير من الخشونة ، وكم تشاجر الصبية في طرقات الحواري عندما تفوق تلك الخشونة حد المعقول. ولكن المعتقلين في كوبر قد كبر بهم العمر مما جعلهم ينأون عن الخشونة، أو ربما سخروا منها إذا فاقت الحد . وكان بالسراية أحد اللاعبين اسمه "علي" سوي البنيان ، وكان كثير الخشونة في لعبه فاطلقوا عليه اسم " علي الكسار " . والاسم مفعم بالهزل . لأنه يذكر الجيل المكتهل بالممثل المصري " علي الكسار" ، وهذا مصدر الهزل. وكان الاسم سببا في أن يقلع علي عن الكسر.

وتحضرني طرافة أخري حول الأسماء الغريبة . عند بداية الاعتقال استفسر وردي عن أسماء المعتقلين الموجودين معه . فذكروا له الأسماء وتصادف أن أول خمسة أسماء هم :حزمر ، كشيحة ، ودودة ، صعيل . فقال وردي علي الفور : ياخي هذه أ سماء معتقلين أم أ سماء اسبيرات.

وحل شهر رمضان وهو مناسبة دينية لها مكانتها ولها طقوسها الخاصة بها في السودان. فبدأت ترد إلينا من الأهل بعض مستلزمات الإفطار مثل

الحلومر والآبري والرقاق والتمر الأصلي بدون سوس والبن وحتي التين والزبيب. وحدث تحوّل في برنامج الأكل لأن غالبية المعتقلين كانوا صياماً. ورمضان شهر الأكل الخاص الذي يساعد علي فتح شهية الصائم . ولكن أين لنا مثل ذلك الأكل. ورأي البعض أن يصوم مع أن القرآن يقول " وعلي الذين يطيقونه فدية طعام مسكين " ، لأنه وجد أن الصيام لايختلف عن شبه المجاعة التي نعيشها.

وعندما حل موعد الافطار في اليوم الأول ، أحسست أن غالبية المعتقلين قد حملتهم الذكري إلي أسرهم وأهلهم وإلى تقاليد رمضان التي لها مكانتها الخاصة في كل أسرة وكل حي. وكان مشهد المعتقلين وهم يجلسون علي الأرض ويتناولون طعاما لايمت لذلك الشهر بصلة مشهدا يبعث على الأسي.

وبرزت مشكلة السحور . فبعض المعتقلين اعتاد شرب الشاي أو القهوة أو اللبن الدافيء في ذلك الهجيع من الليل . ولكن السجن لا يوفر العشاء ناهيك عن توفير السحور . والنار ممنوعة داخل السراية . وأ صبح الناس في حيرة. واخيرا تفتقت عبقرية أحد المعتقلين عن حل. فقد تمكن مبارك "أبودقن" ،وهو شاب حلو المعشر من حي بيت المال بأم درمان ، من عمل سراج يشبه موقد الجاز . ولا أدري من أين جاء بالعلبة والحبل ولا بالجازولين وهو الأهم. ولكن للسجن أساليبه. فلم نشعر إلا والنار تتقد في السراية في إحدي الليالي والمعتقلون في غدو ورواح يعدون مستلزمات السحور . وأعطوا مبارك لقب "مكتشف النار" . والحق أن مجهود مبارك كان كبيرا ،ولكن المشهد كان مأساويا. فالدخان يتطاير فوق الرؤوس ويدخل العيون ويحط بعضه فوق الأكل، والناس تتكدس حول ذلك الموقد وكأنهم في أحدي كهوف الإنسان الأول. وليتني ألقي مبارك ليحدثني عن الوسيلة التي حقق بها ذلك الكشف.

وحل بنا العيد في ذلك المكان القفر . وكان لابد من أن تتردد أبيات المتنبي:

عيد بأية حال عدت ياعيد بمامضي أم لأمر فيك تجديد
أما الحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا دونها بيد
ياسقيّي أخمرا في كؤسكما أم في كؤسكما هم وتسهيد

ولعل بعضهم قد أدرك عبقرية ذلك الشاعر وقدرته علـــي التعبـير عــن خلجات النفس في قوة امتد أثرها عبر قرون حتي استطاعت أن تعبر عن حالـــة المعتقلين في سجن كوبر في عيد الفطر عام ١٩٧١ م.

وبذل المعتقلون جهدا خلاقا ليخرج صباح العيد في ثوب قشيب . فلبـــس القوم أجمل الجلابيب وأبهي العمامات ووضع بعضهم الشالات الفـــاخرة علـــي كتوفهم . فخلق لون البياض الطاغي جوا بهيجا . والتفت مجموعة حول محمـــد خلف الله الشايقي ممن ينحدرون من أسر تنتمي لطائفة الختمية ، وأخذوا يرددون بعض أناشيد المولد النبوي مثل " صلوا عليه النبي صلوا عليه ... النور يا محمد نبي صلوا عليه " . وتبادلت العنابر الزيارات . واستل بعضهم "حـــلاوة " كـــان يدخرها لهذا اليوم.

إنه إصرار لا يعرف الوهن بالتمسك بالحياة وورنقها رغم ماكان يعتريـها من ظلمات بعضها فوق بعض.

(٧) وجاء الأطباء ...... جاء الأطباء

يرتبط ذكر الأطباء في ذهني وذهن كثير من أبناء جيلي بشتي المشاعر . وهي مشاعر يختلط فيها التقدير بالاحترام لتلك المهنة الإنسانية وللرجال الذين حملوا أمانتها . فمنذ الصبا ونحن نسمع الأغاني الشعبية التي تشيد بذكر الاطباء مثل : الدكاترة العشرة ، والدكاترة ولادة الهنا ، ونادوا الحكيم ياالتمرجي ...الخ. وهناك ثوب نسائي كان يسمي "ضلع الدكاترة " وكأن أضلاعهم ليست كضلع آدم الذي خرجت منه حواء. وأهل السودان يتفاعلون في أغانيهم مع كثير من مستجدات الحضارة ، ويخلطونها بمشاعر رومانسية أو يخلطون المشاعر الرومانسية بها. ومنذ افتتاح مدرسة كتشنر الطبية عام ١٩٢٤ م وللأطباء مكان مرموق في الحياة الاجتماعية السودانية . ولاشك أن المهنة لها بريقها الاجتماعي كما لها إغراؤها المادي ،ولكن لها أيضا جانبها الإنساني العميق.

وكان للأطباء الأوائل الذين تخرجوا من مدرسة كتشنر سمعة عالية ليس للمكانة المهنية التي احتلوها فحسب ، ولكن لأدائهم الرفيع ومسلكهم الانساني الذي تحلوا به وهم يخوضون مستنقع الأوبئة مثل السل والكلازار والسحائي والملاريا. وكانت تدفع بهم شتي القوي . حتي أصبحت أسماؤهم تتردد علي ألسنة الناس. فكنا نسمع عن علي بدري وعلي باخريبة وعلي أرباب وحسين أحمد حسين ومحمد أحمد علي ومحمود حمد نصر وساتي وغيرهم.إذ كانوا يؤدون عملهم وهم ينظرون إلي رؤسائهم ورصفائهم من الأطباء الإنجليز الذين تميزوا بالأداء الرفيع . فكانت التحديات تحيط بهم من كل جانب . وهكذا ترسخ لدى أبناء جيلي صورة زاهية للأطباء نسجت خيوطها من سنوات الأداء الرفيع.

وترتقي مهنة الطب مثل المهن الأخري عندما يختلط دورها الفني بالانساني ويكملان بعضهما البعض . ولعل قصيدة الشاعر العراقي الجواهري التي مطلعها:

مجدت فيك مشاعرا ومواهبا   وقضيت فرضا للنوابغ واجبا

هي من أجود الشعر العربي الذي يصور هذا الدور المتكامل للطبيب . فيبدأ القصيدة ممتدحا الطبيب ومشيدا بدوره في علاج المرضي . ثم يذكر حادثة هامة وهي استقالة ذلك الطبيب من عمادة كلية الطب احتجاجا علي اقتحام الشرطة للحرم الجامعي في إحدي الهبات الوطنية وقتلهم عددا من الطلاب . وفي نفس

الوقت أشرف ذلك الطبيب إشرافا مباشرا علي علاج الجرحي فخاطبه الجواهري قائلا:

وقفت للصرعي نهارا دائبا وسهرت ليلا نابغيا ناصبا
وحضنت هاتيك الأسرة فوقها أسد مضرجة تلوب لواغبا
أرج من الذكري يلفك عطره ويزيد جانبك الموطد جانبا
ولأنت صنت الدار يوم أباحها باغ ينازل في الكريهة طالبا
الغي ينجد بالرصاص مزمجرا والرشد ينجد بالحجارة حاصبا

ذكرت هذه الأبيات لأنه مرت بنا محن لم يرتفع فيها المهنيون من ذوي الشأن بقامتهم إلي مستوي الرجال . وتصور الأبيات الدور المتكامل للطبيب الذي إذا تنازل عن جانب منه أصيبت رسالته المقدسة بالكساح. ولقد قابلنا بعض الأطباء في الحياة العامة وفي السجن يكاد المرء يجزم أنهم مصابون بانفصام الشخصية لأن أداءهم ومهنتهم بينهما بعد المشرقين وبعد المغربين.

وكان العلاج من القضايا الملحة في كوبر وقد تصدي المساعد الطبي "الصادق" لتلك الحالات وعلاجها قدر استطاعته . وقد لعب المساعدون الطبيون دورا صحيّا متميزا في السودان. فانتشروا في القري النائية يحملون بلسم الشفاء في حدود المعرفة الطبية التي حصلوا عليها. ولاشك أن أبناء جيلنا يذكرون المساعد الطبي في حنتوب وفي وادي سيدنا وكيف كانا يجمعان بين واجبهم المهني والأبوي. ورغم أن كوبر كان به عدد من الأطباء المتميزين الذين قدموا مساعدات في الحدود الممكنة، إلا أن تحمل المسئولية الطبية في ذلك الوضع كان خارج قدرتهم. وكان " الصادق " يستشيرهم ويستفيد من خبرتهم في بعض الحالات. ولكن الامكانيات العلاجية كانت محدودة . فتدهورت حالة المعتقلين الصحية وتفاقمت حالة المرضي منهم.

وبدأت الأزمة تنفرج عندما جاء الدكتورصلاح الكردي. وهو شاب يحمل بين جوانحه إنسانية الطبيب . فبدأ فورا بكتابة الأدوية التي قامت إدارة السجن بشرائها من الصيدليات وأمر بالأكل الخاص للمرضي وللمصابين بفقر الدم ، وحول الذين يحتاجون إلي عناية خاصة إلي مستشفي السجن وكنت واحدا منهم، فلم أكن أستطيع النهوض من الأرض الا بمساعدة رهط من المعتقلين ، وكانت مشيتي معوجة استطاع الحاج عبد الرحمن محاكاتها بطريقة كانت مثار ضحك حتي بالنسبة لي.

ووجدنا الحياة في المستشفي تختلف عن حياة السراية رغم أنه لا يفصل بينهما سوي حائط. وكان بذلك الحائط شباك به فتحة كنا نسرب منها الأكل لإخواننا الجوعي في السراية . واستمتعنا بنوم السرير بعد طول غياب . وارتحنا من القيام في الفجر للتمام فقد كانت عملية التمام تجري ونحن في أسرتنا . ولكن أصوات الصفارات اللعينة كانت تنطلق مدوية في الأقسام الأخري فتحرمنا من لذة النوم في الصباح. ولكننا افتقدنا حياة السراية حيث يتحرك الانسان بين مئات المعتقلين ، حيث نجد في كل ساعة ما يصرفنا عن السجن ووحشته.

ثم استدعي دكتور الكردى مجموعة من الأطباء الاخصائيين للنظر فى الحالات التى تستدعى ذلك. فجاء أحمد عبدالعزيز أخصائى الجراحة ، والسر عبدالماجد أخصائى الباطنية وكمال زكى أخصائى جراحة العظام. وتحول مستشفى السجن إلى عيادة تخصصية تموج بالحركة. وكان أولئك الأطباء أول مجموعة نقابلها من البشر من خارج محيط السجن. فكان الانفراد بأحدهم خلف ستارة الكشف فرصة للحديث الهامس حول ما يدور فى البلاد. وكنا فى حاجة إلى أية كلمة نشتم منها رائحة العالم الخارجي ونجدد ارتباطنا به. وأبدى الأطباء مشاعر إنسانية جياشة كان لها وقعها الطيب فى النفوس.

ونظر دكتور كمال زكى فى حالتى لأنه كان يعالجنى منذ عام ١٩٦٨. وطلب صورة بالأشعة فى مستشفى الخرطوم بحرى. وكان الذهاب إلى مستشفى خارج السجن نقلة كبيرة لا تعادلها إلا النقلة من مجتمع الرق إلى مجتمع الاقطاع. وتأهبت لذلك اليوم ولبست، أبهى حلة. وانطلق بنا كومر السجن إلى المستشفى وهو يشق طرقا كم سرنا فيها من قبل، ولكنها تبدت لى هذه المرة كأنها جنة فيحاء. وكان الناس يسيرون فى غدو ورواح والعربات تنهب الأرض جيئة وذهابا. إنها الحياة الدافقة التى حرمنا جس نبضها خلال الأشهر الماضية. وكنت أتلفت فى الطريق لعلى المح وجها أعرفه، ولكن الذين أعرفهم اختفوا من الطرقات كأنما ابتلعتهم بئر. وجعلتنى لهفتى لرؤية بعض معارفى أنسى أن أغلبهم كانوا فى أعمالهم فى ذلك الوقت. ولكن اللهفة العجولة لا تعرف منطق، فكدت أصيح أين أنتم أيها المعارف والأصحاب؟ .

وعندما وصلنا المستشفى تحقق حلمى فقابلت أحد الذين أعرفهم معرفة عابرة وكان حارا فى لقائه. ولم أستطع الحديث معه إلا لحظات عابرة، لأن حراس السجن كانوا يمنعون أى شخص من الاقتراب منا. وطلبت منه في اللحظات التي تبادلنا فيها التحية أن يخطر زوجتى فى حي الموردة بأم درمان

بوجودى في المستشفي . وأبدي الرجل حماسة بالغة . ولا أدري ماذا فعل . هل ركب صاروخا أم امتطي براقا ، لأنه عاد بعد وقت كان بالنسبة لي قصيرا جدا وكانت معه زوجتي . وكنا نستعد لركوب عربة السجن عائدين. فلم أتحدث معها سوي لحظات تكرم بها علينا الحارس. وكانت حبلي في شهرها الخامس . ثم وقع عليها أثر تلك الزيارة المفاجئة ، فبدت عليها انفعالات عنيفة. وكان أول تعليق لها حول هزال جسمي . فقلت لها هل تعتقدين أننا كنا في فندق . وكنا لم نلتق منذ مطلع يوليو عندما كنت في سجن كسلا . ويبدو أن هزال جسمى وملابسي التي كانت تتهدل علي أكتافي وجو اللقاء قد دفعها إلي البكاء . فتمالكت نفسي وتحليت بثبات لا أدري من أين جمعته ، ولكنه كان ضروريا ليهدأ روعها. وقلت لها مازحا الحمدلله أن لى سناما عشت علية. وأخبرتها بأنى عائد بعد أيام لصورة الأشعة. وحاولت أن تدس نقودا فى يدى ولكن الحارس منعها. ولم يطل حديثنا أكثر من ذلك. وعدت إلى السجن وقد أعطانى ذلك اللقاء العابر شحنة نفسية. وكان البشر باديا عليّ وأنا أحكى قصة ذلك اللقاء. وأستطيع أن افهم لماذا تحرص الأنظمة المتسلطة على منع المعتقلين من لقاء أسرهم.

وعدت إلى المستشفى فى اليوم الموعود لصورة الأشعة. وكانت خالتى طبيبة فى مستشفى الخرطوم بحرى. فأخبرتنى عند وصولى بأنها رتبت لوالدى ووالدتى وجدتى الحضور لمقابلتى، ولم تتمكن من إخطار زوجتى لأنها عادت إلى كسلا. فقلت لها وكيف لى أن ألقاهم وأنا محاط بحراس السجن؟ فقالت إنها دبرت الأمر. وبقيت جالسا أمام حجرة الأشعة ومعى السجان. وبعد فترة رأيت أبى وأمى وجدتى يسيرون نحو حجرة الأشعة. وتحاشوا تماما النظر إلى ناحيتى رغم أنهم لمحونى من بعد. وكانوا ينظرون إلى خلسة. وكان يبدو عليهم أعلى دراجات التكتم والسرية. فكان مشهد مثيرا للضحك، بالذات جدتى التى تخشى رجال الشرطة والبنادق. ثم دخلوا غرفة الأشعة مثلهم مثل أى مرضى. وبعد فترة تم استدعائى. وعندما أراد الحارس أن يدخل معى إلى الغرفة المظلمة التى بها أجهزة الأشعة وكان يختبئ بها أهلى أيضا، منعته الطبيبة قائلة إن الدخول هنا للمرضى فقط. وبقى الحارس قابعا عند الباب الخارجى.

ودخلت الغرفة وعانقت أهلى عناقا حارا. وكان اللقاء مثيرا فى ذلك الجو الغريب. وبعد أن هدأت حرارة اللقاء، أخبرني والدي أنه قابل وزير الداخلية اللواء الباقر لأن والده كان من أصدقاء والدي . وأخبره بأنه لن يتم إطلاق سراحي قريبا ، لأنني كما ادعي الوزير عضو في "لجنة الظل للحزب الشيوعي"

واندهشت حقا لأنني لم أسمع بذلك "الظل" من قبل ولم أجلس تحت أفيائه . وبدا لي أن أجهزة الأمن أخذت تبتدع مؤسسات لتبرر بها استمرار اعتقال الناس . وأيقنت أن المقام سيطول بنا في كوبر . ثم قلت لوالدي إن السلطة أخذت توزع المناصب الرفيعة علي الناس ، مما تستحق عليه الشكر. وطلبت منه أن يشكر وزير الداخلية لأنه تكرم وأخطرني باحتلال منصب لم أكن أعلم أنني أحتله. فزجرني والدي قائلا إن الوقت ليس وقت هزر.

ثم استلت جدتي " حجابا " من بين ثنايا ملابسها ، وطلبت مني أن احتفظ به لأنه سيعجل بخروجي من السجن . فرفضت " الحجاب " شاكرا . ولكنها أصرت فتدخل والدي قائلا إن جدتي أحضرت "الحجاب" من مكان بعيد ، ولن يضيرني شيء إذا أخذته وجبرت خاطرها، مما سيبعث السرور في نفسها. فاخذته وظللت محتفظا به في شنطتي في كوبر. وعندما خرجت من السجن بعد عام كامل وجدته في مكانه . فقلت لنفسي لعل حجاب جدتي ليس حجابا من النوع "سريع الذوبان" مثل لبن فورموست ، لأن مفعوله جاء بعد عام.

وبعد انتهاء اللقاء في غرفة الأشعة عدت إلي كوبر وأنا أحمل خبر " لجنة الظل " وحجاب جدتي ونقودا دسها والدي في جيبي. وعدت وفي جنبي مشاعر متضاربة. فقد كنت في نشوة من اللقاء ، وفي غم من خبر لقاء والدي مع وزير الداخلية . وكان خبر الزيارة مصدر أحاديث هامسة مع الأصدقاء .

ولا يفوتني أن أذكر الدكتور هاشم جدوّ الذي لعب دورا متميزا في تحسين الغذاء والعلاج وإدخال المرضي للمستشفي وتحويلهم إلي السلاح الطبي . واستمر دورة حتي تمت تصفية المعتقل مؤقتا في مايو ١٩٧٣ م.

(٨) الاعتقال خارج كوبر

مستشفى الخرطوم بحرى والسلام الطبي

أظهرت صورة الأشعة أن انزلاق الغضروف الذى أعانى منه مازال كما هو. ورأى دكتور كمال أن هذا يستدعى نقلى إلى مستشفى الخرطوم بحرى للعلاج. فتحولت إلى مستشفى الخرطوم بحرى ومعى أبوزيد محمد صالح ومحمد عبدالغفار (شيخ العرب)، وكلاهما مصاب بعلة. وحملنا أمتعتنا وخرجنا من كوبر يصحبنا أربعة من الحراس. ووضعونا فى عنبر بالدرجة الثانية به خمسة مرضى. ووجدنا بشير السلمابى قد سبقنا إلى هناك، ولكن له غرفة خاصة بجوار العنبر. وكان بشير معتقلا فى قضية قتل غير عمد (برئ فيما بعد)، ولذلك لم تكن عليه حراسة مشددة.

وسرعان ما انتشر خبر وصولنا فى مدينة الخرطوم بحرى، ثم فى العاصمة المثلثة فيما بعد. وأبوزيد من سكان الخرطوم بحري وله علاقات اجتماعية واسعة . فبدأت الزيارات تترى علينا . وكان الناس يعبرون بتلك الزيارات عن شتي المشاعر ، بعضها شخصي وبعضها اجتماعي وبعضها سياسي. وقد عبروا بالرمز عن كثير من المشاعر الدفينة . كما أكدت تلك الزيارات متانة قيم أهل السودان وتماسكها. وكشفت هامشية نظام نميري رغم الضجيج الذي كان يحفه فهو ضجيج يلازم أي نظام حاكم في بلد متخلف . فكان لتلك الزيارات مغزاها العميق الذي ترسب في نفوسنا.

وتحسن مستوي الأكل كثيرا بعد انتقالنا الي المستشفي . وكان بشير السلمابي خير عون لنا . فهو يصحو مبكرا ويعد الشاي "الصاموتي" ويضع أمام كل واحد منا كوبا بالغ الرشد. وكان ذلك الشاي أول نقلة لنا من حياة كوبر. ثم يبدأ بشير في إعداد الفول للافطار ويقضي في إعداده الساعات ويجد متعة في ذلك " التظبيط ". وعندما يحين موعد الافطار يصطف بجانب الفول محسنات بديعية مثل الجبن والمربة والطحنية ويحيط بذلك الرغيف الأفرنجي (كان هذا قبل ظهور الرغيف التجاري). أما الغداء فياتي من الأهل والأصدقاء . فما إن يحين وقت الأكل حتي تبدأ الأواني تفد الينا حتي لتكاد تصطدم ببعضها . ولا أنسي من تلك الوجبات صينية جاء يحملها خادم صديقنا محمود شمس الدين . ومحمود مولع بالأكل بشكل عام وباللحم بشكل أخص . فكانت الصينية تحتوي علي ضلعة عبارة عن ربع خروف وهو ما يسمي "صف" . ومازالت صورة

ذلك اللحم ورائحته تعبر أمامي . ولعل الأهل والأصدقاء قد هالهم ما آلت إليـه صحتنا من تدهور ، فأرادوا أن يعوضونا عن ذلك الفقد ، وكنا نحن علي أهبـة الاستعداد للتعويض. وعشنا في بحبوحة وعاش معنا حراس السجن.

وبدأنا نستمع الي الراديو ونقرأ المجلات والجرائـد ونتخـير الكتب التـي نقرؤها ولم يكن بامكان الحراس منعنا منها وهى منتشـرة فـى العنـبر لـدى المرضى الآخرين. ولكنهم كانوا فى حرج وضيق من أمـر الزيـارات، فـهى ممنوعة. ولكن كان من العسير تطبيق لائحة السجن فى عنبر المستشفى وسـط ذلك الجمع من الناس. كما أنهم أكلوا معنا "الملح والملاح". فكانوا يتغاضون ما وسعهم إلى التغاضى سبيل. وحاول بعضهم أن يكون صارما فى تطبيق اللائحة، مما أدى إلى احتكاك بينهم وبين الزوار، فكنا نتدخل دوما لفك تلك الاشـتباكات. وكانت إدارة السجن تقوم بكشات على العنبر. كما أن أجهزة الأمن كانت ترسـل عيونها خشية أن نخطط لثورة على النظام. وانزعجـت تلـك الجـهات مـن الزيارات ومن علاقاتنا الواسعة وتدافع الزوار علينا. فتقرر نقلنا إلى المستشـفى العسكرى فى أم درمان، حيث يمكن ممارسة قدر كبير من الانضباط. فحملنـا أمتعتنا ذات صباح واتجهنا إلى المستشفى العسكرى.

وعندما وصلنا المنطقة العسكرية لم تتجه العربة إلى المستشفى كما كنـا نتوقع وإنما أخذت تتوغل بنا داخل المنطقة العسكرية حتى توقفت عنـد أقصـى الجزء الجنوبى الشرقى منها. ووجدنا أنفسنا أمام أربعة عنابر صغيرة محاطـة بسلك شائك من جميع الجهات، وكان المكان بلقعا. وظهر من على البعد حـى بانت. ووجدنا إدارة المستشفى قد قامت باستعدادات "لوجسـتية" كبـيرة حتـى يصبح المكان قريب الشبه بالمستشفى. فتم اعداد الأسـرة والمفـارش وأدوات الأكل. وخصص لنا ممرض مستديم وآخرون يتناوبون العمل.

ثم أخذ المكان يتحول إلى منفى للمرضى من المعتقلين الذين كانوا يتلقون العلاج في المستشفيات الأخري. فجاء البعض من مستشفي العيون والبعض من مستشفى الخرطوم . بل جاء مرضى من مستشفيات خارج العاصمة. فشـرفنا دكتور شيخ ادريس من مستشفي الأبيض . وشكرنا الله أن أصبح معنا أخصـائي أمراض نفسية يلزم جانبنا إذا دعا الحال . ثم جاء دكتور التوم حامد أخصـائي أمراض النساء فعطلوا تخصصه. ثم توافد علينا المرضي الذين تم تحويلهم مـن سجن كوبر حتي غصت العنابر بمن فيها . ورويدا رويدا طاب لنا المكان وألفنا العيش فيه.

وكانت مواد الأكل جيدة ولكن الطهي دون الوسط . فأخذنا ندعم الوجبات بمواد نشتريها من الخارج عن طريق الممرضين والحراس. وكانت تصلنا نقود من عدة مصادر ، ولكن أهم مصدر لأبوزيد ولي كان علي محمد علي عليه وأسع الرحمة . وأخذت تصلنا الكتب بانتظام بعد فحصها بواسطة إدارة السجن؛ فما زالت السلطة تخشي علينا من الكتب التي تسمم أفكارنا . وكان أطباء السلاح الطبي يزوروننا بانتظام ، ومن بينهم طبيب زاملني في الدراسة منذ المرحلة الأولية حتي جامعة الخرطوم . فاستبشرت خيرا بقدومه . فالانسان يشعر بالفة نحو الطبيب الذي يعرفه. والشخص في المعتقل أكثر إحساسا بتلك الالفة لأنه يري في ذلك الطبيب صلة بالعالم الخارجي . ولكن جاء لقاء زميلي باردا كالثلج . فقلت لنفسي ما لهؤلاء الأطباء ، هل تجمدت أحاسيسهم أم هم يخشون علي منصبهم ، أم أني كنت أتوقع أشياء ما كان لي أن أتوقعها ، أم لعلي حملت صلاتي معهم أكثر مما كانوا يفهمونها؟. وكانت الأدوية تصلنا بانتظام. وأجري بعض المعتقلين عمليات جراحية خفيفة وتم تمريضهم في ذلك المكان

ولم تخل أيام المستشفى العسكري من مضايقات . فقد افتقدنا صخب السراية وجماعات المعتقلين الذين يتحلقون في الأمسيات . حقا إن أكبر ثروة يجمعها المرء في هذه الدنيا هي علاقته بالناس وارتباطه بهم . وليس هذا حديث شخص شبه مفلس . فلينظر الإنسان حواليه وخلفه.

وكانت "الكشات" من المضايقات الأخري . وأي ممنوعات خطيرة كانت تبحث عنها السلطة؟ ألم يقل أحمد فؤاد نجم مخاطبا " زوار الليل " الذين نقبوا بيته تفتيشا:

هو عندي ممنوعات
غير بحب الناس وبكره السكات؟

الشيء الوحيد الذي كنا حريصين علي إخفائه راديو صغير حصلنا غليه بشق الأنفس ، وهو الذي أنقذته وحملته معي إلي كوبر ليسقط صريعا في إحدي " الكشات " . وكنا حريصين علي أدوات الكتابة.

وجاءت السنة الجديدة ونحن في المستشفي العسكري . فقررنا أن نحتفل احتفالا يليق بالمناسبة . فمنذ الصباح الباكر أرسلنا لاحضار اللحم والكيك والحلوي والشموع . وأعددنا وليمة فاخرة حتي بالنسبة للمقاييس خارج السجن .

وكان الجاويش المكلف بحراستنا فى غاية النشاط. فهو يحب الأكل، ووجد ضالته في ذلك الحفل. وكانت ضحكات محمد صالح إبراهيم تدوي في الفضاء كأنها رعد تصطفق . فقد كانت له ضحكة متميزة تتبينها حتي في بيداء . وفي الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل أطفانا الأنوار ووقفنا جميعا في الفناء وبصقنا بكل قوتنا علي عام ١٩٧١ الذي حمل معه الكثير من المآسي . ثم انطلقنا ننشد:

هل ننس أياما مضت
هل ننس ذكراها

ولم يدر أغلب الذين كانوا ينشدون النشيد أن الذي ترجمه من الانجليزية الي اللغة العربية هو الاستاذ أحمد سعد الذي تركناه قابعا في كوبر . وقرأت مقالا للاستاذ ود الريح في جريدة الخرطوم في أغسطس ١٩٩٤ أثناء إعدادي لهذه الذكريات قال إن الذي ترجم النشيد هو الأستاذ مندور المهدي . والأستاذ مندور رحمه الله لم يكن له إحساس أدبي أو فني أو إبداعي ، بل لعله كان متبلدا في هذه الجوانب . ولا أدري كيف ألصق به ود الريح هذه التهمة.

وأثناء وجودنا بالمستشفي سمحت سلطات الأمن للاسر بزيارة المعتقلين. وهناك عدة أسباب لتراجع السلطة . فقد أستمر المعتقلون في مقاومة الإجراءات التعسفية بما فيها منع الزيارات ، فأثمرت تلك المقاومة. كما أن الأسر كانت تضغط وتطالب بزيارة معتقليها . ولعل السلطة قد يئست من كسر روح المقاومة لدي المعتقلين الذين لم تزدهم الاجراءات القمعية إلا صلابة. وأدت تلك الزيارات إلي انفراج نفسي ، كما حملت معها انفراجا غذائيا . فقد كانت الأسر تنظر إلي المعتقلين باشفاق . فأجهدت نفسها لتحمل في تلك الزيارات أشهي الطعام رغم مايكلفه لبعضها من رهق . فقد كانت كثير من أسر المعتقلين تعاني من ضيق الحياة . فأغلب المعتقلين من ذوي الدخل المحدود وهم الذين كانوا يعولون اسرهم . وقد تسبب الاعتقال في مضايقات مادية حادة لبعض الأسر أدت إلى انهيار بعضها. فقد طلبت بعض الزوجات الطلاق ، وفسخت خطوبات . لقد ارتجت حياة كثير من الأسر ارتجاجا مازالت بعض آثاره باقية حتي اليوم . وبقيت بعض تلك الماسي محفوظة في الصدور ، أو طوتها الأسر في ركن عزيز من حياتها باعتبارها جزءا من تراثها الناصع.

وكانت زوجتي قد عادت من كسلا للوضوع وصحبت معها طفلتنا الصغيرة أمينة وتركت الكبار لمواصلة تعليمهم. وفي فبراير رزقنا مولودتنا الرابعة أماني. وبعد انتهاء فترة الوضوع جاءت الأسرة لزيارتي وبينهم المولودة الجديدة وبنتي التي تركتها وعمرها ثلاثة أعوام. وكانت شديدة التعلق بي . فكان اختفائي المفاجيء من حياتها مصدر أزعاج شديد بالنسبة لها، ولم يستطع عقلها أن يستوعب أسبابه وملابساته . وكان للعديد من المعتقلين مثل هذه التجارب ، بل كان بعضها أشد قسوة ، ولكنهم لم يسمحوا لها أن تهز حياتهم في المعتقل . غير أن بعضها كان يطفح خلال الأحاديث الودية بين المعتقلين.

وكانت لتلك الزيارة الأسرية الأولي وقعها العميق في نفسي . وقد اعتري المعتقلين نفس الشعور . فبعد ثمانية أشهر اجتمع شمل الأسر وإن كان لفترة وجيزة وفي ظروف أبعد ماتكون عن الجو الأسري. وأخذت أرقب وقت حلول الزيارة بشغف . وعند العاشرة رأيت زوجتي مع مجموعة من النساء . ثم أطلت بنتي أمينة وكانت بلغت من العمرأربع سنوات. وما أن راتني حتي ضحكت وتوارت خلف الحائط وهي في حالة نشوة ومرح. ثم أطلت واختفت مرة أخرى. وأخيرا أخذت تجري نحوي بلهفة شديدة بعد أن تغلبت علي موجة الخجل التي اعترتها أمام ذلك الجمع من الناس. واحتملت تزاحم المشاعر التي اعتملت في نفسي حتي لاتسقط مني دمعة أمام حشد الزوار . ثم التفت الي المولودة الجديدة وكان عمرها شهر ونصف. فتأملتها طويلا وشمت في عينيها البريئتين إشراقة الحياة وهي تتجد ، وشمت فيهما رؤي الدرب الذي ستقطعه . فانبلج في نفسي ألق الوجود ، واطمأننت علي المستقبل الوضاء.

وكان بعض المعتقلين يشاهدون أول مولود لهم للمرة الأولي ، فقد اعتقلوا بعيد زواجهم وتركوا زوجاتهم في أشهرهن الأولي من الحمل . بل إن بعض المعتقلين قد جاء الي السجن ومازالت حنة الزواج طرية فوق أكفهم. وكانت مشاعر هؤلاء أكثر حدة منا نحن المخضرمون في الحياة الزوجية.

وفجأة تقرر تصفية المستشفي العسكري وإعادتنا الي سجن كوبر . فما ندري إلا وجاء الأمر ذات صباح بحزم أمتعتنا والرحيل فورا. فكانت مغادرة المكان الذي ألفنا فيه الحياة بضعة أشهر وما توفر لنا فيه من راحة نسبية ، ومغادرة الفضاء الممتد عبر الأسلاك الشائكة بلاجدران تقبض النفس ، مغادرة مثيرة للازعاج. ولكن العودة إلي كوبر وإلي حياة المعتقلين العامرة والانغماس في حياتهم ، كان مصدر سلوى.

(٩) العود إلي كوبر ..... والعود أحمد

وعدنا إلي كوبر يستحثنا الشوق . وأى شوق هذا لولا أن تكون حالنا قد آلت الي الحال المأساوية للعاشق التي صورها خليل فرح في بيت من أروع ما قيل في الغناء السوداني. حيث قال:

في لهيبك أشوف ساحل
كالفراشة أجيك راحل

عدنا إلي كوبر بعد غياب خمسة أشهر . وحدثت أثناء تلك الفترة تطورات هامة في حياة السجن . فقد أصبح المعتقلون يسيطرون علي جانب من شئون حياتهم . وكان السبب الرئيسي لهذا التطور هو دخول المعتقلين في إضراب استمر ثلاثة أيام ، وقد تم تنفيذه في كل من سجن كوبر وشالا والأبيض وبورتسودان بمبادرة وتنسيق من الحزب الشيوعي . واثمر الاضراب. فدخلت الكتب وسمح بالزيارات للاسر وأصبح العلاج منتظما وطرأ تحسن نسبي علي الأكل وتنوعت الألعاب . وأصبحت القيادة معترف بها لدى ادارة السجن وهى التى تتحدث باسم المعتقلين. وكان قد بدأ اطلاق سراح بعض المعتقلين منذ فترة ولكن باعداد محدودة. فخرجت العناصر الرخوة و"الغواصات" الذين كانوا يشوشون على حياة المعتقل. فعندما عدنا إلى كوبر وجدنا معتقلا يسوده الانضباط والمعتقلين متماسكين ويمارسون حياتهم فى هدوء ونظام.

وعندما وصلنا كوبر لم يأخذونا إلى السراية كما كنا نتوقع، بل أخذونا إلى مستشفى السجن حيث قضينا به أياما ثم أحالونا إلى قسم المعاملة. وهذا القسم عبارة عن مجموعة من الغرف الصغيرة تسع كل غرفة لشخصين أو ثلاثة. ويتوسطها ميدان صغير من النجيلة محاط بكنبات من الأسمنت مثل التى نجدها فى المنتزهات العامة. ويقع المطبخ فى الركن الجنوبى الشرقى وأمامه مظلة معروشة بالخشب كان يوضع فيها لوح ثلج كل صباح، وسبحان مغير الأحوال. وتعتبر "المعاملة" أفضل أقسام السجن، وهى مخصصة لسجناء الدرجة الأولى. وقد أمضى فيها إسماعيل الأزهرى فترة السجن التى حكم عليه بها فى مظاهرات الجمعية التشريعية عام ١٩٤٨.

ووفرت إدارة السجن للمرضي بآلام الظهر أسرّة وعليها ألواح من الخشب. ولكن المشكلة كانت إخراج الأسّرة ليلا من الغرف إذ أن إدخالها

صباحا كان يقوم به السجناء. وتصداالشباب الذين وجدناهم في المعاملة لهذه المهمة وتولوا إخراجها نيابة عنا .أما بقية المعتقلين فكانوا مايزالون يفترشون البطحاء.

ولم يستقر بنا المقام طويلا حتي تقرر الإضراب عن الطعام لمدة يومين للضغط علي السلطة لإحراز المزيد من المكاسب لتحسين أوضاع المعتقل بالذات الأكل وتوفير الأسرّة والسماح بالراديو والجرائد . وكان ذلك هو الإضراب الثالث . ولم نشارك في الإضرابين السابقين لأننا كنا بالمستشفي . وتم الاتصال بالأقسام الأخري . وأخطرنا إدارة السجن . ويبدأ الإضراب في الصباح الباكر ويستمر حتي صباح اليوم الثالث . وفي يوم الاضراب جاءت المواد الغذائية حسب "التفريدة" ، فقمنا بإرجاعها . وكانت فرصة للسجناء فعربدوا فيها . مصائب قوم عند قوم فوائد.

وكانت تلك أول تجربة لي في الإضراب عن الطعام . ومضت الساعات الأولي من الإضراب عادية . وما إن انتصف النهار حتي أطلت بوادر الجوع، ولكن تشاغل كل واحد عنها إما بالقراءة أو النوم أو العاب التسلية . وعندما جاء اليوم الثاني عضنا الجوع حقا بنابه . وما أن انتصف النهار حتي أخذت أنظر إلي الساعة كل خمسة دقائق . ياإلهي ! مالهذه الشمس باقية في مكانها لا تتحرك ، هل أصيبت بالشلل مع أنه من المفترض أن تجري لمستقر لها ؟ ولكنها تسير الهوينى بشكل يبعث السأم فى النفس • وبحت بضجري عن بطء الزمن لأحد المعتقلين لعلي أجد عنده بعض العزاء . فقال بكل تفلسف إن المسألة نسبية وتعجب من أني لم أسمع عن أينشتاين . فقلت له ملعون أبو أينشتين ، يا أخي أنا في عرض كسرة حارة وملاح شرموط ، فهل يستطيع أينشتين أن يوفرها لي؟.

وكان لنا بعض العزاء في الماء : "و جعلنا من الماء كل شيء حيّ ". ولكن الماء علي البطن الخاوية كأنة طعن الخناجر : " طعن الخناجر ولا حكم الندل فيا " . وكان النوم مخرجا آخر بل قل مهربا آخر . علي أنه لم يكن نوما ، وإنما كان الواحد يهوي صريع الجوع . وهو نوم متقطع مضطرب لاعمق له ولا استرخاء فيه. وتتخلله أحلام مزعجة كلها عن الطعام. وكانت أكثر أحلامي عن الرغيف. أحلم به ساخنا وبه طبقة حمراء تبعث أنغاما عذبة عند قضمها. وأدركت براعة الجواهري في تصويره لشوق الجياع للرغيف في قصيدته "تنويمة الجياع " التي يقول فيها:

نامي جياع الشعب نامي — حرستك آلهة الطعام
تتنوري قرص الرغيف — كدورة البدر التمام

وحلمت في إحدي لحظات النوم الجائع بدجاجة محمرة . وقبل أن أتمكن من نهشها أفقت لأقبض الريح . ولا أدري لماذا حلمت بالدجاج رغم أنني لست مغرما بأكله . ولا شك أن بقية المعتقلين كانت لهم أحلامهم بانواع الأكل الكامنة في العقل الباطن.

وعجبت كيف يتحمل البعض الإضراب عن الطعام لفترات طويلة . أذكر أني قرأت مرة أن الإضراب عن الطعام يكون شاقا في الأيام الثلاثة الأولي ، وبعدها يصاب الانسان بحالة من القناعة والقبول ولا يصبح الجوع مؤرقا كما كان في الأيام الأولي . ورغم ذلك قلت اللهم لا تدخلنا في إضراب طويل.

وفي اليوم الذي انتهي فيه الإضراب أفقنا في الفجر ، وانطلقنا بقوة نحو الشاي والرغيف الناشف لنسكن شيطان الجوع الذي كان يعربد في الأحشاء. وأيقنت أن ألذ أكل هو الذي يأكله الإنسان وهو جائع.

وما إن أفقنا من هول الاضراب حتي تقرر إضراب آخر لثلاثة أيام. لقد كانت ظروف المعتقل حقا سيئة . كما طال أمر الاعتقال واستطال ، مما جعل ظروف السجن تؤثر علي صحة المعتقلين. فكان الاضراب هو السلاح المتاح لتحسين الأوضاع. ولكني عجبت لماذا يكون الاضراب ثلاثة أيام ، هل الهدف الضغط علي السلطة أم الضغط علينا ؟ ولكن الشباب الذين كانوا معنا كانت روحهم عالية وحماستهم بلا حدود. فكان لابد مما ليس منه بد. لتكن ثلاثة أيام. وإذا أرادت السلطة أن تقضي علينا في هذا المعتقل ، فمن الأكرم أن نقتل أنفسنا بالإضراب . وكدت أصيح " بيدي لا بيد عمرو !!

وجاء اليوم الموعود وأضربنا . وكان الجوع خلال تلك الأيام أشد فتكا من الإضراب السابق . ولكن الأيام الثلاثة انقضت. وتواصلت إضرابات الطعام بعد خروجي من المعتقل . ولكنها أثمرت في النهاية وآتت أكلها. لقد لعب المعتقلون دورا أساسيا في صياغة لائحة السجون الخاصة بالسجناء السياسيين التي اختلفت عن اللائحة الخاصة بالمجرمين . فأصبح لهم طعام خاص ولجنة لاستلام "التفريدة "من المتعهد ، وتحسنت الاوضاع العلاجية والترفيهية. بل أصبحوا جزءا أساسيا من النظام الاداري للسجن. ففي إحدي المرات تمكن أحد الضباط من كشف تلاعب في تموين المعتقلين " التفريدة " . وكان مدير السجن

والمتعهد متواطئين في ذلك التلاعب. وتم إجراء تحقيق . وكـــان المعتقلــون الشهود الأساسيين في ذلك التحقيق. وبعد انتفاضة أبريل ١٩٨٥تحولت قضيـــة ذلك التلاعب الي معركة طويلة.

وعندما عدنا إلي كوبر قرر الطبيب ذهابي الـــي المستشـــفي العســكري مرتين في الأسبوع لإجراء دلك كهربائي وذلك في يومـــي الســبت والإثنيــن . وكانت معي مجموعة أخري تذهب إلي المستشفي لأسباب علاجيـــة مختلفــة . وكنا نعد العدة لتلك الرحلة . فالخروج من جدران السجن حتي لســـاعات فيــه متنفس ، وفرصة لنلتقط خبرا هنا وهناك نحرك به رتابة الحياة في كوبر. وكنــا نذهب الي المستشفي ومعنا حراس السجن بأسلحتهم . وكان من بيـــن اولئــك الحراس جندي اسمه أحمد . وكان أحمد يقول عندما يهم بركوب العربة " بســم الله وبسم المثقفين " ، ويكررها عدة مرات وفي كل مـــرة نذهــب فيــها إلــى المستشفى . وقد هزني قوله وعصف بى أيما عصف. فقد عبر بكلمات بسيطة عن معان بالغة العمق شديدة الغور. لقد كان الرجل رافضا لما كان يحدث فــي البلاد. كما وجد نفسه يتعامل مع بشر يختلفون عـــن الســجناء مــن معتــادى الاجرام. وكان أحمد مولعا بالقراءة ويحب الحوار وتبادل الرأى. لقد كان أحمد نسمة عطرة فى جو خانق. واختفى أحمد فلم أره عندما اعتقلــت بعــد ذلــك. ولعله لم يدر أن ما كان يقوله كان يشحننى بطاقات لم يكن مدركا لما تحمله مــن شحنات لأمثالى.

وكنا عندما نذهب إلى السلاح الطبى يكون رجال الأمن قد ســبقونا إلــى هناك واحتلوا مواقع معينة للمراقبة تحسبا لأي اتصالات مشبوهة قد نقوم بـــها. ماذا ياترى كان يجول بأذهان رجال الأمن؟ فماذا يمكن أن يتم فى تلك اللقـــاءات العابرة مما قد يهدد أمن النظام ورسوخ أقدامه؟ وإذا كانت هناك لقاءات خطــيرة كالتى يتوهمها رجال الأمن، فان المعتقلين ومن يتصلون بهم أقدر على إجـــراء اتصالاتهم بطريقة غير السلاح الطبى. فكان حراس السجن حريصين على منــع أى شخص من الاقتراب منا، رغم أن أولئك الأشخاص كانوا من أفراد الأســـر الذين استبد بهم الشوق .

وفى إحدى زيارات السلاح الطبى قابلت أحد زملاء الدراسة ومن أصدقاء العمر. وكان وقتها عميدا فى الجيش. فعندما رآنى أقبل نحوى بكـــل النجــوم المرصعة على كتفيه وبشرائطه الحمراء. وكنا لم نلتق منـــذ عــدة ســنوات إذ تفرقت بنا السبل. فتعانقنا بحرارة. ولم يستطع حراس السجن التدخـــل لمنــع

ضابط عظيم. ثم قال هازلا وساخرا هل أنت فعلا شخص خطير كما سمعت في الإذاعة في يوليو ١٩٧١ ، أى خطورة يمكن أن يشكلها أمثالك، لاشك أن النظام لا عقل له. وضحكنا كثيرا. فقلت له بصوت عال حتى يسمع من كان يسترق السمع من رجال الأمن: أنت أكثر الناس عقلا ولعل السلطة يكون لها مثل فهمك فيهديها إلى رشدها.

وكانت زيارات الأسر للسجن قد انتظمت. وحملت معها بجانب اللقاءات الحميمة خيرا كثيرا وطعاما وفيرا. فكان يوم الزيارة يوم ابتهاج نفسى ومادى. وكانت بعض الأسر كما ذكرت ترهق نفسها لتقدم لمعتقليها أطيب ما تشتهى الأنفس. أما الأسر المقتدرة فكانت تبالغ فيما تحمله من طعام. ولن ينسى المعتقلون العمدة مقبول الصديق الذى كان يأتى لزيارة ابن اخته يحى عمر وابن أخيه محمد نور. والعمدة مقبول معروف بكرمه الفياض. فكان يأتى إلى الزيارة تصحبه مجموعة من الجرادل كل واحد منها مليئ بنوع من الأكل وعلى راسها خروف محمر.

ويوضع الأكل الذى يأتى فى الزيارات فى "الكميون"، ثم يوزع على وجبتى الغداء والعشاء ويحفظ ما يمكن حفظه إلى اليوم التالى. ويوزع منه للأقسام الاخرى وللسجناء وحتى الحراس. وهناك بعض أصناف الأكل التى لا تجد طريقها إلى الكميون. فالنفس البشرية تضعف أمام بعض المغريات. ولم يصل بعض المعتقلين الدرجة التى "يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة."

فعندما يأتى فى الزيارة حمام فإنه لا يشق طريقه إلى الكميون وإنما ينحرف إلى منزلق آخر ويستقر فى مكان حصين ليؤكل عندما تهدأ الأوضاع. وفى إحدى المرات احتفظ أحدهم بجوز حمام وخبأه. ويبدو أنه نسى أمره أو لم تواته الفرصة للانفراد به، فتغيرت رائحته وفاحت. وتسبب ذلك فى حرج للمعتقل "الشنقان". وأخفى أحدهم دجاجة، ولكن قطا من القطط التى تكثر فى السجن وجد طريقه اليها خلسة، فلم نشعر إلا والقط يندفع من الغرفة حاملا الدجاجة بين فكيه وانطلق كالصاروخ إلى الخارج واختفى بين مجارى السجن أمام دهشة المعتقلين وكسوف صاحب الدجاجة الذى فضحه القط اللعين. أما إذا كان فى الزيارة كنافة فإنها لا ترى الكميون بتاتا. وإذا علم البعض أن شخصا جاءه هذا الكنز، تقربوا والتحموا معه وفتحوا معه حوارا حول قضايا فكرية وأيديولوجية من النوع الذى يطول فيه الحوار لعله يجود عليهم ببعض كنافته. وكان هذا المخطط ينجح فى أغلب الأحيان.

وهناك تعبير شائع فى كوبر يقول "السجن فتاشة"، أى أن السجن يسبر غور النفوس ويظهر قوتها وضعفها. وهذه قوله حق. لأن السجن مجتمع محصور جدا، وإمكانياته محدودة إلى حد بعيد. ويتعايش الناس فيه لأشهر متتالية وقد تمتد إلى سنين. وخلال تلك الفترة تبرز شخصية الإنسان أكثر مما تبرز خلال اللقاءات العابرة التى تتم فى الحياة العادية. والذين لهم بصيرة واعية يتعلمون الكثير من السجن فيدركون نواقصهم ويسعون للتخلص منها والتغلب عليها. ويساعد السجن على صقل الصفات الحميدة ويجلى معدنها فتتوهج.
ونشأت فى تلك المعتقلات صداقات حميمة امتدت إلى ما بعد الاعتقال وانغرست إلى أعماق بعيدة.

وفى يوليو ١٩٧٢ زارتنى أسرتى وكنت لم أر بنتى الكبرى نازك وعمرها تسع سنوات وابنى ناظم يصغرها بعام. وكانت الزيارة مثار انفعالات عنيفة، بالذات عندما انفجرت بنتى نازك باكية عند لقائى بها. ورغم أن انفعلاتى كانت أكثر حدة منها، إلا أنى تمالكت نفسى. والتفت إلى رجل الأمن الذى كان يراقب الزيارة وقلت له بحدة "ألا ترى ما يحدث للاطفال من جراء اعتقالاتكمْ". ولم يكن للرجل ذنب ولكنى اتخذت من الحديث معه وسيلة أنفس بها عن نفسى. وقلت له كلاما آخر بنفس النبرات الحادة . فقد تجسد أمامى رمزا للبطش. وكان الرجل متفهما للموقف وواسع الصدر، فتركنى أقول ما أنا قائل. ولم أذكر ذلك الحادث ادعاء لبطولة جوفاء، ولكن لأصور الموقف كما حدث بالفعل. وكانت مثل تلك المواقف العاطفية تتكرر كثيرا بين المعتقلين وأسرهم. وأذكر أن أحد المعتقلين لم يتمالك من البكاء عندما أخذت زوجته تبكى.

وفى إحدى الزيارات أحضرت لى أسرتى بعض الكتب. وأخذ رجال الأمن يفحصونها كما جرت العادة، بل كانوا يقرأون حتى الرسائل الخاصة. وأثناء فحص كتبى أخذ رجل الأمن واحدا .منها وانطلق به خارج الغرفة. ثم شعرت أن هناك حركة غير عادية بين رجال الأمن محورها ذلك الكتاب وأخيرا جاء رئيسهم يحمل الكتاب الذى لم أكن أعرف عنوانه. وفتح أمامى الصفحة الاولى وكان مكتوب عليها "إهداء إلى الرائد هاشم العطاء" وعليه توقيع ناشر الكتاب. والكتاب هو "اليسار السودانى فى عشر سنوات"، وهو عبارة عن وثائق قام بجمعها والتقديم لها الأستاذ محمد سليمان. ثم سألنى رجل الأمن عن الاهداء الذى فى الكتاب. وأذكر أن ردى تلخص فى نقطتين. الأولى أن هاشم العطاء قد أعدم قبل عام بعد هزيمة حركته فلماذا لا نتركه يهدأ فى قبره. والثانية أن ما

فى الكتاب مجرد إهداء ويعود تاريخه إلى ما قبل قيام هاشم العطا بحركته. ولذلك فإنهم يثيرون ضجة فى غير معترك. وطلبت منه أن يسمح لى بأخذ الكتاب. ويبدو أن الرجل تفهم حديثى، ولكنه قال إن مثل هذه الكتب ممنوعة فى المعتقل. واكتفى بأن طلب من أهلى إعادة الكتاب. وحمدت الله أن انتهت الزوبعة عند ذاك الحد.

وحادثة الكتاب تكشف بعض الجوانب من العقلية الأمنية. فما زال أى أمر يخص هاشم العطا يثير لديهم مخاوف غير مؤسسة. والعقلية الأمنية محدودة وهى أسيرة الهاجس الأمنى الذى يسيطر عليها ويغيم رؤيتها لأنها تفتقد الحس التاريخى. وقد أشرت فى كتابى "تاريخ السودان الحديث" إلى هيمنة العقلية الأمنية على الحكام البريطانيين فى السودان فى أول عهدهم. فقد كان الحاكم العام ونجت (١٨٩٩ - ١٩١٦) ومستشاره سلاطين من رجال المخابرات. فما إن يسمعوا أن شخصا ادعى أنه المهدى حتى ينطلقوا إليه بعدتهم وعتادهم ويسحقونه ويقضون عليه قضاء مبرما. فقد كانوا يتوهمون أن أى صيحة تكبير ربما تكون بداية لمهدية جديدة، لمجرد أن الإمام المهدى خرج فى القرن التاسع عشر من الجزيرة أبا مع حفنة من المتصوفة وقضى على الحكم التركى _ المصرى. كانوا "يحسبون كل صيحة عليهم العدو". وكذلك توهم رجال الأمن على أيامنا أن وجود كتاب عليه إهداء إلى هاشم العطا قد يكشف لهم أمرا جديدا عن "مؤامرته"، أو يطلعهم على خبايا مؤامرة جديدة قد تفاجئ النظام من حيث لا يحتسب.

واستمرت الزيارات وأصبحت جزءا من روتين السجن. واستقرت حياة المعتقل وغدا لها نمط خاص تسير عليه. وكان كل يوم يفضى إلى اليوم الذى يليه نفس أسلوب الحياة. ولكننا نجحنا فى كسر رتابتها.

(١٠) الخروج من المعتقل

يأتي خبر الافراج عن المعتقل فجأة وبلا مقدمات. قد تكون هناك إرهاصات كأن يسمع المعتقل من أهله أنه على وشك الخروج نتيجة الاتصالات التي قاموا بها مع بعض المسئولين. ولكن تبقى ساعة الخروج نفسها غير محدودة وتأتي فجأة. ولذلك تكون مصدر ابتهاج كبير بسبب الإفراج وبسبب المفاجأة أيضا. ويكون وقع المفاجأة أكبر بالنسبة للشخص الذي لا تدور فكرة الخروج بخلده بشكل ملح. والمعتقل العاقل هو الذي لا يشغل نفسه بقرب الإفراج عنه. إن توقع الخروج من السجن تجعل المعتقل في حالة قلق واضطراب وهي مشاعر قد تعصف به.

وكان بعض المعتقلين يظل مرابطا أمام باب السراية طوال النهار لا يبرح محله ذاك، وينتفض في كل مرة ينفتح فيها الباب على أمل أن يأتي الأمر بالافراج عنه. وأطلق المعتقلون على ذلك الحائط الذي ترابط عنده الجماعة المنتظرة اسم "حائط المبكى". إن الساعة في السجن بالنسبة لذلك النفر تساوي دهرا. ولذلك يذبل عودهم وتشحب وجوههم وتظل أعينهم تتلفت يمنة ويسرة ويصبح السجن أضيق من سم الخياط . ومن حسن الحظ كانوا قلة، وخرجوا مع الدفعات الأولى التي أفرج عنها فأراحوا واستراحوا، وانهار حائط مبكى.

وفي ظهر أحد الأيام من شهر اكتوبر عام ١٩٧٢ كنت جالسا في غرفتي أتجاذب الحديث مع أبوزيد، فجاء جاويش القسم وقال بلا مقدمات إنه قد أطلق سراحي وعليّ أن أعد أمتعتي. فانتفضت من السرير كالذي أصابه مس. وقبل أن أستفيق من المفاجأة كان الخبر قد انتشر في كل القسم. والتف حولي المعتقلون مهنئين ومعانقين. وجمعوا أمتعتي على عجل حتى أخرج سريعا وكأنهم يخشون أن تغير السلطة رأيها. وودعوني وهم ينشدون ويهتفون. وملأت أصواتهم فضاء السجن معلنة للأقسام الأخرى أن شخصا قد أفرج عنه. واختلجت في نفسي شتى المشاعر. فالخروج من السجن محبب إلى النفس ويرجوه كل معتقل. ولكن عندما يحين الفراق ويترك الإنسان خلفه أصدقاء انعقدت معهم وشائج متينة لمدى أشهر ينبعث الحنين في النفس. ورأيت الدموع تتساقط من أعين البعض رغم أن دموع المعتقلين عصيّة. وعندما عبرت باب السراية رأيت البعض ينظر من ثقب الباب ويصيحون باسمي.

ذهبت إلى مكاتب الأمن في الخرطوم. وهناك طلبوا منى أن أوقع على تعهد بعد أن أقرأه. فقلت لهم ما أنا بقارئ ، هاتوا التعهد ووقعت عليه. وكنت أعلم أن فحوى التعهد عدم القيام بأى نشاط ضد النظام، وكأنما مثل ذلك النشاط يحتاج إلى إذن. واعتبرت التعهد لا معنى له وليس إلا سخافة أمنية. وانطلقت إلى منزل أهلى فى الموردة ووصلت قبيل موعد الغداء. وصاح الأهل فرحا، وصاحت بطنى شوقا إلى أكل المنزل.

ولكن حياة السجن لم تنته بمجرد الخروج منه. فقد ظلت أصداء كوبر تردد فى أذنى وأطيافه تعبر أمامى. وكنت فى الأيام الأولى أقارن بين الحياة فى الخارج ومايقابلها فى السجن فى نفس الوقت. فأقول لنفسى الآن الجماعة فى وقت الإفطار أو فى ألعاب التسلية. واحتجت لبعض الوقت لأنتزع نفسى من روتين السجن ورتابة حياته وأتكيف مع صخب الحياة اليومى وإيقاعها المتسارع. وظل هاجس حياة السجن يلازمنى لفترة، حتى خلت أنى أدمنت تلك الحياة. ولكن ذلك الهاجس أخذ يتلاشى فى ضجيج الحياة وانخرطت فى معمعان الهموم اليومية. وتذكرت ما كان يردده المعتقلون فى ساعات الضيق قائلين "أيام تتعدى وتبقى حكاوى."

(١١) كروان السجن الصداح

لايمكن اختتام هذه الفترة من الإعتقال بدون الحديث عن الشاعر محجوب شريف. لقد أمضي محجوب سنوات عديدة من أنضـــر ســنوات عمــره فـــي معتقلات نظام نميري مثله في ذلك مثل معتقلين كثر ظلوا أكـــثر مــن خمــس سنوات تباعا بين سجون كوبر وشالا وبورتسودان وغيرها. وظل محجوب علي امتداد تلك السنوات يكتب شعره الدافق بالحيوية والمفعــم بــالأمل والصمــود . وكانت قصائده تترى مثل شلالات " دفقت في منحدر " . حتي أصبــــح بحــق كروان السجن الصداح.

ابتدر محجوب ملاحمه الشعرية ولم يمض علينا في السجن سوى أسابيع. فظهرت أولي قصائده ومازالت النفوس كسيرة وسحائب الحزن الداكنة تخيم علي سماء المعتقل والأمل أفقا بعيدا لم يتبين الكثيرون ملامحه بعد . ففـــي إحــدي أمسيات السراية وقف شاب ليقرأ قصيدة محجوب نيابة عنه لأنه كان فـــي قســم الطواريء . يقول فيها:

ياشعبنا
يا والدا أحبنا
يامن وهبت قلبنا ثباتك الأصيلا
إليك هذه الرسالة القصيرة الطويله
إليك من زنزانة تخاصم الفصولا
إليك رغم أنف كل بندقيه
وكلمة شقيه
وحقد بربريه
إليك الحب والسلام والتحيه
ودمت ياحبيبنا ، وبعد.

واختتمها بتفاؤله الكاسح قائلا:

وأجمل الأطفال قادمون ساعة فساعه
عيونهم أشد من عيوننا بريقا
صدورهم بما وهبت أكثر اتساعا

وحين يكبرون يا أبي
سيوفهم تزيد من سيوفك الطوال طولا
لأن بذرة الحياة ليست الرصاص
لأن سيرة النضال لا كما تردد الإذاعة الصفيقه

فكانت القصيدة ومضة في ليل دامس ، ونسمة أمل في مناخ تخثر طقسه، وصيحة صمود في زمان كاد أن يعز فيه الصمود. وأكدت القصيدة أن عود الرمح مازال صلبا لدي اللقاء ، وأن الشاعر هو الضمير الحي الذي يفصح عن كوامن الأنفس في تلك الهجمة البربرية ، وأن أجمل الأطفال قادمون. ولعل أجمل مافي القصيدة أنها جعلت الشعب محورها ووجهت خطابها إليه . فالشعب هو مستودع الحكمة والملاذ الذي يحتمي به المرء والجدار الذي يحمي ظهره في النوائب. وأكدت أن المحنة ليست هي النهاية . ولقد وقفت عند هذه القصيدة لقيمتها التاريخية ولشجاعتها وجرأتها.

وجاءت قصيدته التالية بمناسبة ذكري ثورة أكتوبر ١٩٦٤ . ولحّن وردي القصيدة وغناها من خلف قضبان السجن . فعبر هو ومحجوب عن صمودهما الفني الرائع . وكان ذلك الصمود " طودا تسامي فوق أطواد " فاتكأنا عليه ونحن نثبت أقدامنا في واقع الردة المرير. كتب محجوب يقول:

أكتوبر ديناميتنا
ديناميتنا ساعة الصفر
ركيزة بيتنا
لون الشارع طعم الشارع
قبضة سيفنا وطولنا الفارع

وأصبح هذا المطلع نشيدا جماعيا وشعارا يردده المعتقلون في المناسبات. فكان إحدي الأسلحة التي واجهنا بها الردة حتي انكسرت حدتها وخبا طيشها.

ولم ألتق بمحجوب طوال هذه الفترة لأنه كان في قسم آخر . وبدأت تتشكل له ملامح صورة في ذهني . فقد تخيلته شابا نحيف الجسم طويل القامة حاد القسمات يكاد الشرر يتطاير من عينيه. فالذي يقول مثل هذا الشعر لا بد أن تكون له مثل هذه الصفات. وظلت هذه الصورة عالقة بذهني وأخذت

ملامحها تتعمق كلما قرأت له قصيدة جديدة.

وكان محجوب ضمن المجموعة التي نفيت إلي سجن شالا. فتواصلت الملحمة الشعرية . فكتب:

ودانا لي شالا
عزتنا ماشاله
نحن البلد خيره
ومستقبل أجياله

وذكر الرفاعي طرافة حول هذه القصيدة . فقد أقيمت ندوة في السراية حول شعر المقاومة . وبعد انتهاء الندوة قال محمد عبد الغفار (شيخ العرب) لخليل الياس " نحن نعتبر من رواد العمل السياسي في السودان فلماذا نترك مجال الشعر للأولاد الصغار ولا نحاول أن نقول شعرا". فرد عليه خليل "طيب ما تشعر يا شيخ العرب". فقال له سأقول لك قصيدة على وزن "ودانا لى شالا" وأنشد قائلا-:

ودانا لي بربر
قلبنا مافرفر
قطرنا ماصفر
نميري يا أزعر

ولو سمع الخليل بن أحمد أوخليل فرح أوخليل مطران بهذا الشعر بدلا من خليل الياس لانهالوا ضربا علي شيخ العرب.

وكتب محجوب قصيدة " الحب والثورة " التي وجهها الي الحبيبة وهو مسافر في طريقه إلى المنفي فقال:

مشتاق ليك كثير والله (تقرأ وله)
للجيران وللحلة
كمان قطر النضال ولي
وغالي علي أدلي
محطة محطة بتذكر عيونك ونحن في المنفي
وبتذكر مناديلك خيوطها الحمرا ما صدفه
وبذكر سؤالك لي متين جرح البلد يشفي

متين تضحك سما الخرطوم حبيبتنا ومتين تصفي
سؤالك كان بعذبنا وبقربنا
وبزيد ما بينا من إلفة
وياما زادني حماس
وكم في قلبي دق نحاس
وطار من عيني باقي نعاس
أنحن اتنين بنتقاسم هموم الناس
عشان الناس بعزك ياأعز الناس
بس لكني ، ياويلي
أقول يامنو واقبل وين
لمن أخون صباح العين واخون جيلي
واعاهدك ياقمر ليلي
وحياة أمنا الخرطوم
اشيل شيلي واشد حيلي
واموت واقف على حيلى
واقولك يا أعز الناس
علي العهد القديم راجعيين
وبين الثورة والسكين
شيوعيين وحتي الموت شيوعيين
بنادق وين بتمنعنا العديل والزين
بنادق وين ..... بنادق وين

وترنم محجوب شريف في شالا ببعض الأبيات باللهجة الدارجية لأهل المنطقة. وتحولت تلك الأبيات إلى نشيد نسائى تترنم به النسوة عند الذهاب لجلب الماء. ولفهم الأبيات نحتاج لتوضيح بعض الكلمات. فأهل الفاشر ينطقون كلمة عافية "آفية"، وكلمة طيبين "تيبين "وتعبير "عافية طيبين" أو "آفية تيبين" للتحية والسؤال عن الصحة فقال محجوب:

آفية تيبين   للساكنين شالا
آفية تيبين   ال لقليبى شالا

وقام وردي بتلحين قصيدة " الحب والثورة " رغم حرمانه من أدواته الموسيقية. لقد استطاع هذا الفنان أن يقهر ذلك الحرمان ويظل شلاله الدافق من

الموسيقي والنغم لا يتوقف . وعندما غني القصيدة أضاء بها دجي ليلنا خلف القضبان. كم هم صامدون اؤلئك المبدعون الملتصقون بمعاناة أهلهم وثري بلادهم . يتوهج وجدانهم في أكثر الظروف حلكة ، أو لعل القهر يصقل مواهبهم في أتون المعاناة لأن ضمائرهم أبدا حية.

وكانت العلاقة الفنية العميقة بين وردي ومحجوب محور اهتمامي منذ زمن. وأشرت إليها في مقالة نشرتها بصحيفة الأيام (عدد ١٩٨٨/٧/٥) بعنوان " التلازم الفريد بين الشاعر والفنان " . وعندما التقيت مع وردي في القاهرة في صيف عام ١٩٩٤م أطلعته علي هذه الذكريات فأضاف مشكورا نبذة عن تاريخ هذه العلاقة.

قال وردي إنه التقي مع محجوب شريف في أوائل عام ١٩٦٩ ، ولم يتعارفا كغرباء بل التقيا في كل شيء . وكان محجوب شابا يافعا آنذاك وكان وردي –حسب قوله – شابا غير يافع. وأدرك وردي من أول وهلة أن محجوب شاعر صادق ومرهف وشجاع. وتطورت الصلة بينهما إلي صلات أسرية ونضالية . ويري أن محجوب صاحب مدرسة شعرية قائمة بذاتها ولم يقلد أحدا. وخلق مدرسة حديثة في الشعر. ولا يكتب شعره مستخدما القلم والورق، بل يؤلف في ذاكرته ثم ينقله الآخرون عندما يمليه. ويقول وردي إنه تعود علي كلمات محجوب لجزالتها الموسيقية ولصورها الشعرية . وقال محجوب لوردي إنه حينما يؤلف شعره يسمع صوته فيكتب علي اللحن المتوقع ثم قال وردي " هكذا توافقنا ووفقنا."

ثم يواصل قائلا إنهم كانوا نخبة من الفنانين والشعراء والعازفين أطلقوا علي أنفسهم اسم " الفنانين الاشتراكيين ". وكانوا يساعدون بعضهم البعض في تجويد الإبداع حتي يصلوا بأعمالهم إلي مستوي لائق سواء في الشعر أو اللحن أو المعزوفة الموسيقية . ولم يكن لهم مقردائم وإنما كانوا يلتقون غالبا في منزل الفنان محمد الآمين في شارع الأربعين في أم درمان. وفي أول أيام انقلاب مايو اندفعوا لتعميق الشعارات التي أعلنت عن طريق الأناشيد ، لأنها شعارات لها مضمون عميق وذات صلة بالتغيير الاجتماعي.

ويقول وردي إن الصدمة الأولى بالنسبة لمحجوب وله حدثت عندما رفضت سلطة مايو أن تسجل لهما الأغنية الوطنية "نتقدم " التي ألفها محجوب ولحنها وردي ومنها:-

حنتقدم
في وش الريح حنتقدم
ونهدم سد ونرفع سد
واشتراكية لآخر حد

يا أكتوبر المحمول علي الأعناق وثيقة دم
نحن براك مابنسلم
ومايو براك مابتسلم

باسم الوقفوا قالوا الجد
وهدوا كتف عدوهم هد
باسم العامل المغبون حنتقدم ... الخ

وازدادت الصدمة بأحداث وممارسات أخرى لنظام مايو أكدت انحرافه عن المبادئ المعلنة ومصادرته للحريات وفتح أبواب السجون والاعتقال. فتبلورت أمام أعينهم صورة قاتمة لمستقبل الشعارات والنظام ، وتوقعوا أن شيئا ما لابد سيحدث.

لم تكن مفاجأة لوردي وصحبه انتصار حركة ١٩ يوليو التي وصفها قائدها بأنها حركة تصحيحية . فبادرت كتلة الفنانين الاشتراكيين بتأييدها . وفورا تم تسجيل نشيد " حنتقدم " في يوم ٢٠ يوليو ١٩٧١ وفي يوم ٢١ يوليو كانت الندوة الشهيرة في الإذاعة بين وردي ومحجوب شريف أدارها المذيع ذو النون بشري وقالا في آخر الندوة بأنهما بنفس الزخم الذي أيدا به الحركة التصحيحية ، سيقولان لها " لا " إذا أخطأت مثلما قالا " لا " لمايو . وانهزمت حركة هاشم العطا يوم ٢٢ يوليو واعتقل وردي ومحجوب يوم ٢٣ يوليو.

وتوالت قصائد محجوب في السجن . فكتب نشيدا بمناسبة استقلال السودان في يناير ١٩٧٢ ولحنه وردي يقول فيه:-

أهلا أهلا بالأعياد
مرحب مرحب يا أجداد
أفتح أفتح يا تاريخ
أبعاد أبعاد

وأملا عيون كل الأحفاد
بالأمجاد
أفتح محضر باسم الشعب
بخط الشعب ومجد الشعب
سجل أنحنا الغضب الواعى على استعداد
وبالمرصاد لكل عميل وكل دخيل بالمرصاد

سجل أنحنا برغم جرحنا
اجتزنا المحنة
ونحنا الليلة أشد ثبات
ونحنا بخير
ونحنا وراكم فى الجايات
ولسه ولسه على استعداد
خط النار أتعبنا وزاد
الجايين من قلب الشارع
والجايين لى قلب الشارع من ثكنات

وبعد مضى عام على الاعتقال كتب يقول:

ملينا الدفتر الأول
ح نملا الدفتر الثانى
ونملا الدفتر المليون ونتحزم رجالا هدوا كتف الموت
دماهم شمسنا الحية
مصابيح ثورة شعبية
قناديل تهب الريح تزيد ناره
تهد الليلة كتف المشنقة الهدارة غدارة
هديرا يسكت الرصاص
ولسه ولسه عبدالخالق المغوار ونحن وراه كف فى كف
وهاشم قاطع الحدين
قصاصه قصاص
عاشوا ومت يا سفاح
ومات الموت كسير الصوت
ويومك أسود الراجين

لمن تصرخ الخرطوم تسوى التح
وشارع شارع النيران بتتفتح
وما بتصفح
حصار الغضبة لو تعلم شديد الغم
ولو تعلم، برغمك يا رخيص الدم
إلى المستقبل الرائع حنتقدم.

وعندما قرأت هذه القصيدة ازداد يقيني بملامح محجوب الصارمة وقسماته الحادة، فكنا لم نلتق بعد.

وكتب محجوب مجموعة من القصائد فى شهداء ١٩ يوليو من مدنيين وعسكريين. فكتب عن عبدالخالق محجوب:

عبدالخالق ختاى المذالق أب قلبا حجر
إلا ما عليك يا أرض الوطن

ولحنها أيضا وردى فى المعتقل. لك الله يا وردى يا قيثارة السجن. وكتب محجوب عن الشفيع أحمد الشيخ:

وا حلالى نا وا حلالى — أريتو حالك يابا حالى
الشفيع يا فاطمة فى الحي — فى المصانع فى البلد دي
سكتيها القالت أحي — ما حصاده الأخضر النى
راضى عنه الشعب والدي — مات شهيد أنا وا حلالى

وهذه القصيدة غناها الكورال فى العيد الأربعين للحزب الشيوعى عام ١٩٨٧ فى مسرح الصداقة بالخرطوم وكان لحنها رائعا.

وكتب محجوب "عريس الحمى" يقول فيها:

عريس الحمي
المجرتق بالرصاص المحنن بالدما
يوم الحارة جت قلبوا ما عمي
دوخ البطانة في محاكما
روحه لا وجل راح يقدما
راح يقدما

عزة البلد ود ملاحمها طيب مواسمه
الشمس تمش كان بلازما
رايته ياجني لي جني الجني ما بسلمه مابنسلما

ولحنها وردي ويبدو أن السلطة انزعجت من تواصل ألحان وردي التي كانت أخبارها تفوح خارج المعتقل . كما بدأت تشعر ببعض الحـرج مـن استمرار اعتقال فنان له شعبية كاسحة مثل وردي. فبعد عدة أشهر مـن الاعتقـال رأت السلطة أن تحاول تحسين الجو معه. فاستدعاه بعض رجال الأمن إلي مقابلة في مكتب السجن وأخبروه أن " السيد الرئيس " مهتم بأمره وهم علي استعداد لأن يلبوا له أي طلبات. وكانوا يتوقعون أن يطلب إطلاق سراحه . ولكنه قال لـهم بكل بساطة إنه يريد أن يحضروا له عوده من المنزل . وعندما عرضوا الطلب علي اللواء الباقر وزير الداخلية ،قال نحن اعتقلنا وردي فى الأساس من أجـل العود وليس لأنه كان يركب دبابة.

وكتب محجوب وهو في سجن بورتسودان قصيدة " في انتظارك " عندمـا علم أن زوجته في طريقها إليه بالقطار لزيارته . فقال:-

في انتظارك في انتظارك
في شراييني بدمدم حس قطارك
لو أطير من سجني وانزل في جوارك
وعنك أمسح بي رموش العين غبارك
إلى أن يقول:
باختياري وباختيارك
كم نشارك في المعارك
ما بنقيف نستنا في الآخر نبارك
وما بنخلي فرسنا بارك

وكتب " مساجينك مساجينك " التي غناها الفنان محمد الأمين. وكتـب " اللي علينا بنسوي ". وكتب وكتب . وتوج ذلك بقصيدة " يا والدةيـا مريـم " والتي تبلورت فيها أهم سمات منهج محجوب الشعري وهو دمج الخـاص مـع العام. فالحب وعاطفة الأمومة والأفراح والأحلام والمآسي تتحول كلها لتصبـح جزءا من المشاعر العامة والطموح الكبير لكل النـاس ، ويصبـح " الأنـا " " نحن". وهذا سر منعة شعره وقوته.

في قصيدة "يا والدة يا مريم" لا يتحدث عن أمه مريم فحسب بل عن كل الأمهات. فيتحدث عن عاطفة الأمومة الدافقة قائلا: "يا والدة يا مريم، يا علمرة حنيّة". ثم يتناول قلق الأمهات على أبنائهن من بطش أجهزة الأمن: "والعسكري الفراق بين قلبك الساساق وبينى، هو البندم". ثم يتحدث عن حنينهن الجارف. ثم يذكر والدته مريم بالأم التى أعدم وحيدها يقصد محمد أحمد الزين أحد قادة حركة ١٩ يوليو. فيقول لها:

ما شفتى ود الزين
الكان وحيد أمه
ماليلا كان العين
ويرفض ود الزين أن يتكلم فى التحقيق كلما سألوه
قالوا له ناسك كم
قالوا له ناسك وين

ويصمد شامخا ليموت أكثر شموخا. ويذكر لوالدته مريم بأن هناك من مات من الشهداء دون أن يلقى الدفن اللائق به: فما "وسدوه الطوب". ويؤكد لها أنه مثل أولئك الرجال وأنه لن يأتى بفعل يسود وجهه:

أنا مابسوّى الشين
أنا مابسوّى الشين
أنا لو سقونى الدم

وهكذا يتدرج بأمه خارج مشاعرها الذاتية الضيقة، حتى ترى ابنها فى نهاية القصيدة ليس معتقلا تخشى عليه من ريب الزمان وأجهزه الأمن، وإنما

راجع مع الفرسان
فايت الحدود واسيت

وذاعت القصيدة حتى غدت حداءا لجيل بأكمله.

ولست هنا بصدد دراسة شعر محجوب شريف الذى ينثال من شلالات وجدانه المتدفق: فمثل هذه الدراسة لها رجالها. ولكنى قصدت أن أفتح كوة يسمع منها الناس ذلك الكروان وهو يصدح. ومازلنا ننتظر رجال الأدب ليقوموا بدراسة نقدية لهذا الشاعر ترقى إلى دراسات الدكتور إحسان عباس عن البياتى والسياب.

ولم ألتق مع محجوب طوال السبعينات لأنه قليلا ما كان يبقى خارج المعتقل. والتقينا أول مرة عندما قرر نظام نميري إعادة المفصولين عن العمل الي مواقعهم. وتكونت لجنة في الاتحاد الاشتراكي (حزب السلطة) ليقابلها المفصولون . وهناك التقيت به عندما أشار أحدهم إليه . وكانت صورته علي نقيض الصورة التي كنت أحملها في ذهني طوال تلك السنوات . فقد كانت رؤيته صدمة لي ، إذ وجدت نفسي أمام شاب ممتلئ الجسم يميل كثيرا الي السمنة ،مربوع القامة أو لعلة قصيرها فهذه مسألة نسبية ، مستدير الوجه . رقيق الي درجة بعيدة حتي يمكن أن تحسبه ساذجا. ويحمل فمه ابتسامة طفل . فقلت لنفسي هل هذا هو الشخص الذي كتب ذلك الشعر الملتهب ؟ ومن أين له كل ذلك الضرام.

وعندما قابل محجوب اللجنة فى الاتحاد الاشتراكى عبر عن احتجاجه من اعتقاله المستمر رغم أنه لم يحمل سلاحا ضد النظام. فقال له أحد أعضاء اللجنة إن شعره أكثر تأثيرا وفعالية من الدبابة. وذكرنى هذا التعليق ما قاله أحد مؤرخى الثورة الفرنسية بأن وثيقة "إعلان حقوق الإنسان" التى أصدرتها الثورة فى أكتوبر ١٧٨٩ أعمق أثرا من كل جيوش نابليون ومعاركه.

وظللت، أسال نفسى من أين جاء محجوب بهذه القوة الدافقة فى شعره ؟ وماذا يكمن خلف ذلك الوجه الوديع؟ ثم تعرفت على محجوب عن قرب، حيث التقينا فى أحد المعتقلات لمدى ثلاثة عشر شهرا عشناها سويا فى غرفة واحدة. وتبين لى أن السر يكمن فى أمر واحد وهو ارتباطه الوثيق بالناس. ليس ارتباطا خطابيا ، أو ارتباط من يدعي بطولة جوفاء ، ولكنه ارتباط عميق متأصل في نفسه ويغلف حياته ويشكل مجمل منهجه وسلوكه . هذا الارتباط الحميم بالناس هو الأرض التي يقف عليها . وهي أرض جد صلبة . ومن فوقها يقول شعره الذي يخرج من أعماق الناس وغورهم وليس من ذلك الوجه الوديع . فهو كالبحر الذي قال عنه إيليا أبو ماضي:

يرقص الموج وفي قاعك حرب لن تزولا

وكان محجوب مع آخر مجموعة من المعتقلين الذين خرجوا من سجون نميري عندما اقتحمت جماهير الانتفاضة في السادس من ابريل عام ١٩٨٥ سجن كوبر وحطمت أبوابه وحررت المعتقلين . ووصف محجوب ذلك المشهد المدوي في إحدى قصائده . فقال مخاطبا سجن كوبر عندما اعتقل فيه مرة أخرى في يوليو ١٩٨٩:-

جيناك وكنا طلعنا منك عنوة كده واقتدار
تشهد زنازينك هديك وكذا الجدار
لحن الجماهير العميق جلجل شديد الانحدار
زلزل حديد الانكسار
والتف حولك واستدار
وملا الطريق
فإذا بأسوارك ضفاف وسواعد الناس النخيل

وبعدها ظل كروان السجن يصدح ولكن خارج السجن. وهـذه ملحمة شعرية أخرى.

(١٣) أسبوعان في سجن كسلا

في عام ١٩٧٣ خرج كل المعتقلين من السجون بعد أن أجازت السلطة دستورها الجديد. ولكن سرعان ما تغيرت الأوضاع وعادت الاعتقالات مرة أخرى. فقد عدل الدستور عام ١٩٧٥ لينسجم مع الطبيعة الحقيقية لنظام حكم الفرد. وكان الدستور يحتوي علي جوانب تكنيكية جديدة. ولكن فات علي مهندسيه أن جوهر الدستور غير مظهره. فلا مكان لدستور مع حاكم متسلط مهما زين ذلك الدستور بالأصباغ والمساحيق. إذ سرعان ما يمحي المكياج من لهيب الصراع السياسي لتبرز الدكتاتورية بأنيابها السامة. وربما كان مهندسو من عبدة الأصباغ والمساحيق. وكان جوهر الديمقراطية بندا هامشيا في أجندة عملهم السياسي. لقد كانت معارضة طغيان حكم الفرد هي أساس الصراع الدموي في البلاد.

ولم تأخذ الاعتقالات هذه المرة طابعا جماعيا كما حدث في يوليو ١٩٧١، ولا حتي بعد انتفاضة شعبان وحركة حسن حسين. أما ما حدث بعد فشل حركة محمد نور سعد في يوليو ١٩٧٦، فقد كان مذابح أكثر من كونه اعتقالات. وليت الذين عاشوها يكتبون عنها.

وبقيت خارج المعتقل حتي سبتمبر ١٩٧٦. وفي ذلك الشهر ذهبت الي كسلا. وكان ذلك بعد عام من وفاة والدي. وكانت الزيارة بغرض الاشراف علي بعض ممتلكات الأسرة. وفي إحدى الأمسيات كنت أتناول العشاء مع صديقي مبارك في حي الميرغنية،فإذا بعربة تقف أمام الباب وبها اثنان من رجال الأمن. وطلبا أن أرافقهما إلى رئاسة قسم الأمن، وذلك بعد أن تكرما وتركاني أكمل عشائي. وكان تناول العشاء ضروريا لأن الأكل في المراحل الأولى من الاعتقال غير مضمون العواقب. فقد يبقي الشخص المعتقل يتناول طعاما هامشيا أو ربما بقي دون أكل لساعات طوال. فالأنظمة القمعية لا تعامل المعتقلين كبشر وإنما ترمي بهم حيثما اتفق، لأنها مشغولة ومهتمة بأمر خطير وكبير وجلل ألا وهو تثبيت السلطة الجائرة وحمايتها. ولذلك ما كان عجبا أن تتصدر قضية حقوق الإنسان أجندة العصر وتصبح البؤرة الساخنة في النشاط السياسي العالمي.

رافقت رجال الأمن إلى مكاتبهم، وهناك أخبرونى أنه جاءهم أمر من

الخرطوم باعتقالى. وكان على أن أنام على الأرض. ونمت نوما متقطعا وقضيت ليلة فى منتهى الإزعاج. فقد كان رجال الأمن يحضرون إلى المكتب بأسلحتهم طوال الليل ويكتبون تقارير فى دفتر، ثم ينصرفون لتعود مجموعة أخرى بعد فترة. ولا أدرى من أين كانوا يأتون. وكان وجودى وأنا مرمى على الأرض مثار اهتمام عابر، فلعلهم قد ألفوا مثل هذا المنظر. وتعجبت إن كان فى كسلا وما حولها ما يحتاج لكل تلك الحركة التى لا تنقطع. ولكن قلت لعلى غشيم لا أدرك أهمية القضية الأمنية وأبعادها. وسألت نفسى هل كل هذا من أجل أن يبقى نميرى الأجوف وحفنة المرتزقة المتحلقين حوله متربعين فى كرسى الحكم ؟ وكنت أعجب من أمر اعتقالى ومن صلتى بكل هذا الضجيج.

وفى الصباح أشرقت على الشمس وأنا جالس فى ذلك المكتب الحكومى وقد خف وقع الحركة الليلية الدائبة، ولكن بدأت حركة الموظفين القادمين إلى مكاتبهم. وكان بعضهم يعرفنى فينظر نحوى مندهشا وينصرف وأنا فى دهشة أكثر منهم. وأسعفنى مبارك بالشاي فكان حضوره فتحا مبينا. وبدأت أطالب بنقلى إلى مكان أجد فيه حماما وأستطيع ممارسة طقوس الحياة العادية. ولم أجد استجابة. وعندما علمت أن مدير الشرطة من زملاء الدراسة فى حنتوب الثانوية، طلبت مقابلته. ووجدت الرجل فى حيرة ولا يدرى سبب اعتقالى لأنه تم بأمر من الخرطوم. لقد كان كل جهاز الأمن سلطة فوق الشرطة ومديرها.

وقضيت ثلاثة أيام فى تلك الحالة البائسة. ثم أخذونى لمقابلة مدير سجون كسلا الذى أخبرنى بنقلى إلى سجن كسلا. وكان الرجل من معارفى ومن أبناء كسلا، لكنه قابلنى ببرود شديد وتعال أشد. فذكرت أحمد صالح البشير عليه الرحمة. واعترض المدير - لافض فوه - على كرسى خيزران أستعمله لقضاء الحاجة وكان لى واحد فى سجن كوبر. وكان سبب اعتراضه أن الكرسى آلة حادة ووجوده داخل السجن خطر. ولكن عندما وصلت السجن أخبرت الضابط وهو ملازم بنجمة واحدة، بحاجتى إلى الكرسى. فسمح لى بأخذه واعتبر رأى رئيسه - الذى ترصع النجوم كتفه - رأيا سخيفا.

ووضعونى فى عنبر كبير وأمامه ساحة واسعة. ولم يكن معى أحد. وكان الانغلاق فى ذلك المكان مصدر سأم شديد. ولعل مدير السجون منعنى من أخذ الكرسى خشية أن انتحر بأحد أرجله. ومما زاد من السأم أن الإدارة منعت عنى الكتب والجرائد. فأيقنت أن مدير السجون يريد أن يستعرض عضلاته لغرض فى نفسه أجهله. ولم أجد وسيلة أقطع بها الوقت سوى متابعة

النمل وهو يدب في الأرض في مسيره الدؤوب. وشدتني روح المثابرة التي تتحلى بها هذه الحشرات. فكنت أتابع النملة وهي تدحرج غنيمة أكبر من حجمها عدة مرات، وتمضي بها مسافة طويلة حتى تدخل جحرها. وقد خصها القرآن بسورة وضح في إحدى آياتها حرص النمل حتى من الأنبياء "...قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون". وكنت أجد نوعا من التشفي في قتل الذباب بحذائي.

وألفت ذلك المكان المنقطع. إن قدرة الإنسان على التكيف هي سلاحه الذي مكنه من البقاء على هذا الكوكب الذي عصفت تقلباته بكثير من الحيوانات التي افتقدت تلك القدرة. وبعد ثمانية أيام أفرجوا عني. وذهبت إلى الخرطوم وقابلت نائب مدير جهاز الأمن حسب ما طلب مني. فأخبرني أنهم لم يطلبوا اعتقالي وإنما طلبوا من جهات الأمن في كسلا مجرد التحقيق معي في الأسباب التي من أجلها ذهبت إلى كسلا، ولكنهم لم يفهموا التعليمات فأبقوني في الاعتقال. وقال ما يشبه الاعتذار . فقلت له إن التحقيق معي لمجرد ذهابي إلي كسلا يثير دهشتي ، لأن كسلا موطني وبها أهلي ولنا فيها مصالح ومن الطبيعي أن أذهب إليها من حين لآخر فقال إن هذا مجرد أمر عابر سببه أنهم كانوا يتوقعون " تحركات في الشرق " ، ويريدون أن يعرفوا إن كان لي صلة بها. فقلت له لنفرض أن هناك تحركات في الشرق فما علاقتي بها هل أنا عثمان دقنة ؟ فانفجر ضاحكا رغم أني لم أرد إضحاكه.

لم أذكر هذا الحادث للمضايقة التي لحقت بي . فقد كانت التجربة عابرة لا تساوي شيئا بالنسبة لما عاناه غيري من اعتقالات عشوائية في ظل حكم نميري. ولكن ذكرته لما يحمله من دلالات عن النظم الأمنية في الحكم الدكتاتوري ، حيث يمكن أن يقضي الإنسان أياما بل أشهرا وقد تمتد الي سنوات لمجرد أن هناك فئة لها حق اتخاذ القرار بشأن حريته دون رقيب أو مساءلة أو محاسبة. واعتبرت نفسي سعيد الحظ لأني قضيت بضعة أيام.

(١٣) العودة إلى كوبر بعد طول غياب (١٩٧٩)

مرت سبع سنوات بعد خروجي من سجن كوبر عام ١٩٧٢ شهدت فيها البلاد أحداثا جساما في جبهة المعارضة أدت الي اعتقالات وتعذيب واغتيالات جماعية. فوقعت أحداث شعبان ١٩٧٣ ، وحركة حسن حسين عام ١٩٧٥ ، وحركة محمد نور سعد عام ١٩٧٦ . وكانت كلها بقيادة الجبهة الوطنية المعارضة لنظام نميري . وتتكون الجبهة من أحزاب الأمة والاتحادي الديمقراطي والإخوان المسلمين. وشهدت تلك الفترة انفلات الأساليب القمعية والتعذيب والقتل العشوائي بصورة لم يشهدها السودان من قبل ولم يألفها.

وتواصلت اعتقالات الشيوعيين والديمقراطيين بشكل منظم ولفترات طويلة جدا. ولكنهم لم يتعرضوا للتعذيب الهمجي الذي وقع علي عناصر الأحزاب الأخرى بعد فشل محاولاتها الانقلابية.

وبالرغم من أن نميري عقد عام ١٩٧٧ مصالحة مع أحزاب الجبهة الوطنية الثلاثة، إلا أن المعارضة لنظامه لم تتوقف . فقد بقي الشريف حسين الهندي في لندن يقود جناحا في الحزب الوطني الاتحادي ضد النظام . ولم يدخل الحزب الشيوعي المصالحة. فأخذت المعارضة تتصاعد وبلغت إحدى قممها في صيف ١٩٧٩ ، فكان صيفا ساخنا جدا بالنسبة للنظام . وبدأت الاعتقالات.

وأصدر الحزب الشيوعي كتيبا ضمن المنشورات السرية التي كان يصدرها خلال دكتاتورية نميري ، وكان بعنوان " الحكومة سر تجار السوق الأسود ". وسر التجار وظيفة كان يحتلها في الماضي أكبر التجار مكانة في البلد. ومضمون الكتيب أن تخفيض الجنيه السوداني للمرة الثانية عام ١٩٧٩، أرغم الحكومة علي رفع أسعار بعض السلع مثل البترول والخبز والسكر لتغطية العجز في الميزانية . واشتمل الكتيب علي أرقام عن التكلفة للسلع التي زادت أسعارها ، مما أثار حفيظة نميري، بالذات عندما تأكد له أن الأرقام دقيقة. فعلق قائلا لنائبة عمر محمد الطيب رئيس جهاز الأمن إن الخدمة المدنية لا يزال بها شيوعيون ، وإن من أهداف الكتيب التعبئة للإضراب السياسي . وأمره بالقيام باعتقالات واسعة وسط الشيوعيين.

وأخذ جهاز الأمن في تنفيذ أوامر نميري فاعتقل أعدادا كبيرة من الشيوعيين • ومن الأشياء التي تدعو الي السخرية أن أعضاء الجهاز ذهبوا الي

منازل بعض الأشخاص لاعتقالهم وكانوا قد فارقوا الحياة ، ومنهم:

محمد مرغني نقد المحامي	في حي أبور وف
مبارك بشري	في حي بيت المال
زكريا عبد الرحمن	في حي بري
زكريا عبده صالح	في حي ناصر
محجوب حمد	في حي البوستة
أبواليسر (طالب)	في الجزيرة

واعتقل قاسم أمين أصيب في سجن كوبر بمرض القلب الذى أدى فيما بعد إلى إصابته بالشلل ثم إلى وفاته . كما أصيب محجوب عثمان العامل بحلويات كريكاب بالشلل في وجهه. وكان عباس علي من ضمن من صدر الأمر باعتقالهم . فاستدعاه عمر محمد الطيب في مكتبه وبعد المقابلة أطلق سراحه. والسبب أن عباس كان أستاذا للواء عمر عندما كان طالبا في مدرسة الخرطوم بحري الوسطي في الأربعينات. ويبدو أن التلميذ أراد أن يستثني أستاذه من تلك الحملة. وعباس علي من شيوخ المعتقلين. فقد قضي سنوات طوال من عمره في السجن. وما دخلت المعتقل إلا وجدت عباس علي. وأخيرا اعتقل عام ١٩٨٩. وكان أثر ذلك الاعتقال وخيما علي صحته . وتوفي عباس عام ١٩٩٤ بعد أن قاوم الأمراض التي تراكمت عليه عبر سنوات اعتقاله الطوال.

وتم اعتقالي في شهر أغسطس . وفي اليوم الذي اعتقلت فيه وقع لي حادث مثير . فقد كنت أجلس في مساء ذلك اليوم في حوش المنزل و جاءني الأستاذ التجاني الطيب الذي كان مختفيا. وكنت سآخذه بعربتي الي مكان آخر . فقال إن الظروف متوترة ومن الأفضل أن يذهب وينتظرني في مكان آخر ووافقته ، وكان التيار الكهربائي مقطوعا . وبينما كان يهم بمغادرة المنزل سمعت طرقا علي الباب . فقلت له مازحا هاهم رجال الأمن قد شرفوا . وذهبت لأفتح الباب الذي يبعد بضعة أمتار من مكان جلوسنا. وهناك تلقاني شخص وقال إنه يريد مقابلة محمد سعيد القدال. فعندما قلت له أنا ذلك الشخص ، فقال " أنت شخصيا " وطلب مني أن أرافقه لمقابلة قصيرة في جهاز الأمن . فخرجت معه من فوري ، ولم أطلب منه حتي أن أخبر أسرتي. فقد كنت أريد الابتعاد عن المنزل . وكنت ألبس جلبابا منزليا وشبشب سفنجة . وكان داخلي كله يهتز ويرتعد . وكان الظلام عونا لي في إخفاء اضطرابي . وقبل أن نصل الي عربة الأمن التي كانت تقف بعيدا عن المنزل ، إلتقاني أحد الجيران هو السر أبو راس

فاعطيته شمعة كنت أحملها وطلبت منه أن يخبر زوجتي بخبر اعتقالي . فـــأخذ الشمعة وعلامات الدهشة ترتسم علي وجهه.

وما إن سارت بنا العربة الي مسافة معقولة تكفي لوصول الرسالة الـــي أسرتي ، حتي التفت إلي رجل الأمن وقلت له إن هذا الاعتقال ليس لقاء عـــابرا كما ذكر ،لأن المقابلات العابرة لا تتم في الليل . وطلبت منـــه إرجـــاعي إلـــي المنزل لأخذ ملابسي واحتياجاتي الضرورية . ولكنه لم يعط طلبي اهتماما. ولم ألح فقد كنت سعيدا بالخروج من تلك الورطة.

وتوقفت بنا العربة أمام جهاز الأمن الذي يقع بالقرب من رئاســـة القوات المسلحة. وأدخلوني غرفة أمامية وجدت بها حمزة زروق . وبعد فـــترة دخل علينا كمال الجزولي ومعه شنطة يكاد تئن من ثقل ما فيها . وكـــانت أول مرة أتعرف فيها بكمال عن قرب ، فقد كنت أسمع عنه وأقرأ بعـــض شـــعره . وتناولنا عشاءنا وكان عبارة عن فول بائس . ونمنا علي الأرض.

وفي الصباح واجهتنا المشاكل التي تواجه الإنسان والخاصة بالحمـــام والسواك والشاي . وتمكنا بعد جهد جهيد أن نستوفي بعضها . ثم أخرجونا مـــن الغرفة لأنها كانت حارة جدا . وجلسنا تحت ظل شجرة .وبعد فترة شرفنا هاشـــم صديق . ولم التق به من قبل ، ولكن قرأت شعره واســـتمتعت كثـــيرا بنشـــيده "ملحمة أكتوبر " الذي يغنيه الفنان محمد الأمين. فقلت لنفسي لعل هـــذا اعتقـــال خاص بالشعراء، وخشيت أن يتحول المكان إلي سوق عكاظ. وتناولنـــا إفطـــارا أكثر بؤسا من العشاء

وعند الظهيرة أرسلت لي زوجتي شنطتين كانتا معدتين باحتياجاتى فـــى المعتقل • وتحتوى إحداهما على ملابس ومهمات أخرى والثانية كتب. وســـألني هاشم الذي كان يجرب الاعتقال لأول مرة، إن كنت أحتاج لكـــل هـــذه الشـــنط والعتاد. فقلت له لعل هذا قليل من كثير لأن المسألة قد تطول . وعندما توثقـــت علاقتنا فيما بعد قال لي إن تلك الشنط سببت له إحباطا لأنه كان يعتقد أن المسألة ساعات أو أيام وتنتهي.

وبقينا تحت ظل الشجرة حتي انتصـــف الضحـــى. فأخذنـــا نطـــالب بتحويلنا الي سجن كوبر حيث أن البقاء تحت ظل الشجرة غـــير مريـــح وغـــير ملائم. وفي المساء نقلنا الي كوبر فكان في ذلك خلاصا من كربة مباني جـــهاز

الأمن ، ويبدو أن إدارة السجن لم تكن مستعدة لاستقبالنا حيث بقينا عند مدخل السجن أمام مباني الإدارة نحو ثلاث ساعات رحت خلالها في نوم عميق . ثم استيقظت وسط احتجاج الجماعة الذين اعتبروا مسلكي نوعا من "ميتة القلب"

وحملنا أمتعتنا الي القسم الذي يسمي الكرنتينة " ب " في الجزء الشرقي من السجن. وهو عبارة عن غرفتين وسط حوش صغير يسمح بلعب " الدافوري " في حدود ضيقة . وكان هذا القسم في الماضي مكانا لعزل المرضي المصابين بأمراض معدية . وبعد القضاء علي تلك الأوبئة تحول الي مكان للاعتقال السياسى ولكن فى درجة أقل من المعاملة . وقد اعتقل فيه المرتزق الألماني شتاينر عام ١٩٧١م . ووجدنا علي جدران الكرتينة أسماء لأعداد من المعتقلين الذين كانوا بها عبر السنوات، فنحتنا أسماءنا علي الجدران مثلهم. ومعظم الأقسام الأخرى بها مثل تلك الأسماء. حتي يمكن اعتبارها وثائق تاريخية للاعتقال.

وكان في الكرتينة مجموعة من المعتقلين الذين تم إحضارهم من عطبرة ، وهم مجموعة من المعلمين الشباب الذين دخلوا في صراع نقابي مع عناصر الاتحاد الاشتراكي ، فما كان من السلطة إلا أن اعتقلتهم ورمت بهم في سجن كوبر .وسرعان ما التحمنا معهم كما هي العادة في المعتقلات حيث لا يحتاج التعارف الي وقت خصوصا بعد اختفاء الغواصات.

ووجدت الوضع في السجن يختلف عن الوضع الذي تركته فيه عام ١٩٧٢م . فقد دخل المعتقلون الذين واصلوا الاعتقال لسنوات في معارك لتحسين وضع السجن ، حتي أرغموا السلطة علي تطبيق لائحة لسجون. ولاشك أن تلك المعارك من الصفحات المشرقة في تاريخ الصراع السياسي في السودان. فوجدنا في السجن أسرة ومراتب وراديو وتلفزيون وصحف وأدوات كتابة . وأصبح المعتقلون يتسلمون التفريدة غير مطبوخة ثم يقومون بإعداد أكلهم بأنفسهم.وانتظمت زيارات الأسر.

وكان يوم الزيارة أكثر الأيام بهجة . ويبدأ المعتقلون الاستعداد له من الصباح فتتم الحلاقة بدقة ، وتنتقي أفخر الثياب ، ويعلو الوجوه بشر .وإذا كانت الخطيبة ضمن الزوار فان ذلك مدعاة لانفعال زائد في التحضير . وكان كمال الجزولي في حالة خطوبة في ذلك الوقت . وكان يحرص علي الذهاب الي عيادة السجن الخارجية في يوم الزيارة لأنها تقع في الطابق الثاني الذي يطل علي ساحة

السجن الخارجية التي تتجمع فيها الأسر . وما أن يري خطيبته – التي أصبحت زوجته فيما بعد – حتي تدب الحيوية في أوصاله . فيعود الي العنبر ويبدأ في الاستعداد. وهو بطبعه محب للأناقة . ولكنه كان يبالغ فيها في ذلك اليوم . وكنت أقول لنفسي سوف تتلاشي تلك الحماسة بعد الزواج وتخبو تلك النزوة. وكانت زوجتي قد أحضرت لي عطرا فاخرا. فكان كمال ينقض عليه يوم الزيارة ويصبه بطريقة ينفطر لها قلبي .اعتقدت أن له (غبينة) مع عطري . ولكن بعد أن التقيت به في الاعتقال مرة أخرى ، وجدته يمارس نفس الطريقة مع عطره الخاص فيصبه صبا . فقلت لا بد أن له غبينة مع جنس العطور عامة. وقمت بإرجاع عطري الفاخر الي المنزل خوفا عليه من الفناء.

وفي إحدى الزيارات علمت أن زوجة عمي توفيت . وكان أحد ضباط الأمن المسؤلين عن الزيارة من طلابي في المرحلة الثانوية فطلبت منه أن يبحث إمكانية ذهابي لحضور المأتم ، ووعد بأن ينظر في الأمر . وفي اليوم التالي جاء اثنان من رجال الأمن لمصاحبتي الي المأتم .وأخذت العربة تسير بنا في اتجاه منزلنا في الخرطوم ثلاثة والذي يعرفه رجال الأمن دون حاجة لإرشادهم ، ولم نتجه إلى منزل المأتم في ضاحية الرياض. ولم ابد اعتراضا إذ وجدتها فرصة لزيارة عابرة للمنزل وأخذ بعض الكتب والوقوف علي أحوال الأسرة . وعندما وقفت العربة أمام المنزل أوضحت لرجلي الأمن أنهما جاءا بي للمكان الخطأ إذ أن المأتم في مكان آخر. وطلبت منهما أن يسمحا لي بأخذ بعض الاحتياجات . وعندما رأتني زوجتي هرعت نحوي فرحة ظنا منها أنه قد أطلق سراحي . ولكني صدمتها بالحقيقة حتي لا تتمادي في الفرحة . ثم ذهبنا الي منزل المأتم. وتركني رجالا الأمن هناك علي أن يعودا في العصر. وتناولت الغداء ولامست الحياة الحرة لسويعات . وفي المساء عدت الي كوبر.

لماذا ذكرت هذا الحادث العابر ؟ ذكرته لما له من بعض الدلالات . أولها أن العلاقات الشخصية تلعب دورا في حياة أهل السودان . وهي التي جعلت أحد طلابي السابقين يهتم بطلبي .وثانيها أن المأتم في السودان له جلاله ومكانته وأعرافه وتقاليده الحميدة. وأي شخص يتجاهل هذه القيم حتي بالنسبة لمعتقل سياسي ، فإنما هو شخص بعيد عن جوهر التقاليد السودانية ونسقها الحميد، إنه شخص منبت . وثالثها أن الاجراءات الأمنية التي اتخذت في تلك الأيام، لم تكن لحماية النظام من أعدائه، وإنما كانت إجراءات تعسفية إرهابية، وإلا ما تركني رجال الأمن في منزل المأتم لساعات كان يمكن أن أهرب خلالها. ورابعها أن ذلك الحادث وقع في الوقت الذي كان فيه أبو القاسم محمد إبراهيم

يصيح عبر اجهزة الإعلام منددا بأعداء الثورة ومطالبا بالقبض عليهم. وكان يرغي ويزبد بألفاظ جوفاء لا يعي مدلولها، وهي تعبر عن خطل الرجل وخفة عقله، واعتقاده الزائف في لحظة من لحظات الغفلة التاريخية أنه يقود "ثورة" وأنه صنو لجمال عبدالناصر.

وعشنا تجربة مريرة أثناء هذا الاعتقال. فقد قابلني قاسم أمين في مستشفي السجن وكان قد بدأ يشكو من خدر في يده ومن اضطرابات في القلب. ولكنه كان يتحدث لي وكأنه يشكو من صداع عابر.وكانت تلك بداية جلطة نقل علي إثرها الي المستشفي. وأصيب بشلل نصفي ثم أرسل الي الخارج وتوفي في براغ. وحمل جثمانه الي السودان حيث تم تشييعه في موكب سياسي فريد يليق بمكانه في الحركة السياسية السودانية .وألقي الأستاذ محجوب عثمان كلمة بليغة في ذلك التشييع.

وبعد شهرين من الاعتقال استدعوني إلي جهاز الأمن . فلبست مفتخر الثياب تحسبا لأي احتمال وحتي أكون في مظهر يشرف المعتقلين. وبعد ساعات من الجلوس علي كرسي في إحدى المكاتب بجهاز الأمن بدأت أسأل نفسي عن السبب في مجيئي وبقائي منتظرا كل هذا الوقت. ولكن في هذا المكان ما علي المرء إلا أن يلزم الصمت. وأخيرا أخبروني بأنني سوف أقابل رئيس الجهاز. إذن أنا في طريقي الي اللواء عمر محمد الطيب . فماذا وراء هذا اللقاء؟ إما أن يكون الأمر جلل أو يكون فيه خلاص . وتلاشت آلام الظهر التي انتابتي من طول الجلوس.

وعند الساعة الواحدة ظهرا أخذوني الي مكتب اللواء عمر . فدخلت مكتبا واسعا فارها. ووجدت مع اللواء شخصين أحداهما والد زوجتي والآخر لا أعرفه ولكن يبدو من مظهره أنه تاجر. فاستبشرت خيرا. وازدادت البشري عندما خف اللواء عمر نحوي يستقبلني بالأحضان وبحرارة.وكنت أكثر منه حرارة لذلك اللقاء الذي يقربني من رئيس الجهاز. وكان الرجل بحق لطيفا في لقائه. وبعد التحايا والمجاملات قال اللواء عمر إن والد زوجتي والشخص الذي معه إخوانه في الله؛ وأنهما تحدثا معه في أمر اعتقالي ؛ وأنه أمر بإطلاق سراحي وتمني أن تسير الأمور علي خير. وعندما أيقنت أن الاعتقال انتهي قلت لنفسي لابد أن أقول شيئا يكون عليه صهري وصديقه شهودا. فطلبت من اللواء عمر أن يتكرم ويذكر السبب في اعتقالي . فرد اللواء عمر بهدوء ويقين – وكان ينظر في ملف أمامه لعله الملف الذي يخصني – بأن الدكتور محمد مراد كان

يزورني في منزلي كثيرا ؛ وكانت أجهزة الأمن تتابعه واعتقلته بالفعل بعد أيام في اجتماع سياسي ؛ فكان اعتقالي إجراء أمنى طبيعي. فقلت له إن الدكتور مراد زميلي وأستاذ في قسم التاريخ بمعهد تدريب المعلمين بأم درمان ؛ ولنا مكتب مشترك نجلس فيه طوال اليوم. فإذا كان سبب اعتقالي هو زيارته لمنزلي فالاجدر أن تعتقلوا الجهة المسئولة في وزارة التربية التي وضعتنا سنويا في مكتب واحد. ثم ذكرت له الآية " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ....." فقاطعني قائلا " انظر إن الآية معلقة علي جدار مكتبي " . وكانت بالفعل معلقة علي الجدار الخلفي . فقلت له إن الأهم ليس تعليق الآية علي الجدران وإنما العمل بجوهرها، فقد تم اعتقالي علي أساس شبهات غير صحيحة . ويبدو أن اللواء عمر قد شعر بنوع من الحرج من جراء ما ذكرت وإن لم يبدو ذلك. وهنا تدخل صهري وقال لي إن الأمر انتهي بخير ولا داعي للبحث فيه . وحمدت الله علي ذلك. وانتهي اللقاء عند ذلك الحد.

وعندما خرجنا من مبني جهاز الأمن ؛ عرفت أن الشخص المرافق لصهري صديقه من تجار أم درمان وصديق اللواء عمر . وقد اتصل به صهري لمعرفته بتلك الصداقة . ووعد بان يتدخل وينهي اعتقالي . وذهب مع صهري الي والدتي صباح ذلك اليوم وأخبرها بأني ساكون معها عند الظهر و أتناول معها الغداء. ولذلك عندما ودعته شاكرا وقلت له إنني ذاهب الي سجن كوبر لإحضار أمتعتي ؛ حلف بالطلاق أن أذهب معه الي المنزل رأسا واترك موضوع أمتعتي الي الغد. وصحبني الي المنزل ليؤكد لوالدتي أنه بر بوعده. وهذا مثال اخر لتشابك العلاقات الاجتماعية في السودان والدور الذي تلعبه في حل بعض المشاكل. ولولا تلك العلاقات المؤثرة لبقيت في السجن فترة أطول مثلما بقي رفاقي الذين اعتقلوا معي.

وذهبت في اليوم التالي إلي كوبر لإحضار أمتعتي . ولكن إدارة السجن رفضت السماح لي بالدخول إلي قسم الكرنتينة وطلبوا من أحد الحراس أن يحضرها لي. فالدخول في السجن لغير أهله من سجناء ومعتقلين أمر شاق مثل الخروج منه.وذكرت للضابط بأنني خرجت فجأة وأن أمتعتي موزعة ولا يستطيع أحد غيري أن يتعرف عليها. فلا بد من دخولي حتي أستطيع جمعها. فسمح بالدخول لنصف ساعة وكانت كافية لأودع القوم وهو السبب الرئيسي في الحاحي علي " خول. وعندما رآني زملائي أصيبوا بالاحباط لأنهم اعتقدوا أنه قد أطلق سراحي. وبعد أن تركتهم في ذلك الإحباط فترة فاجأتهم بالنبأ العظيم. فانطلقت الحناجر بالأناشيد ، وودعتهم وخرجت

(١٤) عودة أخرى إلي سجن كوبر ١٩٨٠:

في إحدى أيام أكتوبر عام ١٩٨٠ سمعت طرقا بالباب في السادسة صباحا ، وهو وقت غريب لطارق إلا أن يكون خبر شر أو بشري ولكن جانب الشر هو الأغلب . وعند الباب وجدت ثلاثة من رجال الأمن الذين طلبوا مني مرافقتهم. فطلبت بعض الوقت لأستعد ووافقوا. وأفاقت أسرتي عند سماع الخبر وهم في حالة انزعاج رغم أنها لم تكن تجربتهم الأولى . وحملت حقيبتي وذهبت إلي جهاز الأمن في العمارات الشاهقة في حي المطار.

وبقيت جالسا علي كرسي في إحدى المكاتب زهاء الساعة. وبعدها دخل أبوزيد محمد صالح بكامل عدته. وأخذنا ننظر الي بعض في حيرة. وكنا نديـر عملا تجاريا مشتركا ، ولم ندر من سيتولى أمره ونحن في المعتقل. واعتقدنا أن هذه "كشة " وأن المعتقلين سيتوالون علينا . وعندما انتصف الضحى ولم يـأت أحد؛ سألت أبوزيد قائلا " أين باقي الناس ؟ " . فانفجر ضاحكا لأنه كما يبدو كان يفكر في نفس الأمر.

وأخذنا نطالب بترحيلنا الي كوبر . وعند العصر أخذونا الـي هناك . ووجدنا أن دكتور محمد سليمان كان معتقلا في مكان آخر فانضم الـي ركبنا. وعند وصولنا كوبر حولونا جميعا الي قسم المديرية. فدخلنا بعد غيبة طويلة، وما أن انفتح الباب حتي خف نحونا المعتقلون وكان أغلبهم من الشباب وأخذوا يهتفون بصوت مدو "لا سجون للشرفاء السجون للعملاء ، عاش كفاح الشعب السوداني ". وكانت هتافاتهم مليئة بالحرارة وتنطلق من حناجر جسورة. فهزتني أيما هزة، وانفتح السجن أمامي ساحة غناء . لن أنسى مشاعرى ذلك اليوم.

بعد تسع سنوات من الاعتقالات المتواصلة أصبح سجن كوبر مألوفا للمعتقلين، فتطور منهج الحياة فيه ، ولم يعد مكانا لاجترار اليأس والتأسي وإنما غدا أرضا للصمود والصلابة ومواصلة الحياة بأكبر قدر من الانضباط والنظام. وأصبح للمعتقلين لجنة معترف بها من قبل إدارة السجن، تقوم بإدارة شئونه بداية باستلام " التعيينة " الي توزيع أعباء النوبتجية ووضع برنامج المحاضرات والرياضة والتسلية.

وكان بالمديرية خليط من المعتقلين من نقابين وسياسيين ومن

عناصر ديمقراطية ومن أعضاء حزب الأمة والحزب الشيوعي . ووجدنا الضابط سعد بحر الذي ارتبط اسمه بالعديد من المحاولات الانقلابية ضد نظام نميري . وكان جو المعتقل مفعم بالالفة فكلنا في الهم شرق . وكان المعتقلون يشاركون في مختلف النشاطات.

ووجدنا البعض قد بدأ دراسة اللغة البلغارية التي كان يقوم بتدريسها أحد خريجي جامعات بلغاريا. ولم نستطع أن نواصل معهم لأنهم كانوا قد قطعوا شوطا بعيدا .فبدأ دكتور محمد سليمان تدريس اللغة الألمانية ، فانخرطنا معه . وكانت البرامج الثقافية علي أشدها. وطلبوا مني تقديم محاضرات عن تاريخ السودان. وكنت أعد في ذلك الوقت كتابي عن " المهدي لوحة لثائر سوداني "والذى نشرته فيما بعد عام ١٩٨٥. فبدأت تقديم أجزاء منه في محاضرتين كل أسبوع .وقد قدم المعتقلون مناقشات حية أفدت منها كثيرا. وفي أثناء تقديمي لإحدى تلك المحاضرات في وقت الظهر ، جاء الخبر بإطلاق سراحي . فقالوا إن الإمام المهدي لحقني ببركاته، وتقبلت قولهم رغم جذوري الختمية.

وأثناء وجودنا بالمديرية جاء الخبر بوفاة الشريف حسين الهندي في لندن. وكان يقود المعارضة ضد نظام نميري في الخارج. وهو من أبرز السياسيين وأوسعهم نفوذا واقتدارا. فكانت وفاته ضربة للمعارضة. فقررنا أن نقيم له حفل تأبين يليق بمكانته وجهده. وأذكر أنني طلبت من منظمي البرنامج أن يكون افتتاح الحفل بالآيات التالية : "فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثي بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب * لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد *متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. " واستطعنا رغم الظروف التي نحن فيها أن نقول بعض الشيء في حق الرجل. لقد كان الشريف في أعماقه راهبا من رهبان الديمقراطية.

واحتل النشاط الرياضي مكانا مرموقا في دنيا المديرية. وكان محوره الكرة الطائرة ، التي تشتد فيها المنافسة . ويجتهد كل فريق أن يضم إليه أفضل اللاعبين . وفي أول يوم توسم قائد إحدى الفرقتين خيرا في شخصي وانخدع بمظهري فسارع بضمي الي فريقه. وانكشف أدائي الضعيف أثناء اللعب . فأصبحت بعد ذلك عبئا علي الفريق الذي انضم إليه. فكان اختياري يتم في آخر القائمة. ثم أصبح اختياري موضع تندر حتي من جانبي.

وفي إحدى الأيام شرفنا في المديرية هاشم العمـــدة لاعـــب الكـــرة المشهور. فبدأ تدريبا رياضيا منظما. وفي اليوم الثاني أحضروا له بدلة التدريـب الرسمية. وفي ظروف يومين انسجم في حياة المعتقل. ولكن أطلق سراحه فـــي اليوم الثالث ، لأن اعتقاله كان فى البداية عن طريق الخطأ. واستاء لذلـك الخروج السريع بعد أن ارتاح لحياة المعتقل. ولعله المعتقل الوحيد الذي لم يبتهج لإطلاق سراحه و كان كلما التقينا بعد ذلك يذكر تلك الأيام بنشوة رغم قصرهـا. وربما لو مكث بضعة أشهر لغير رأيه.

وكان في زنازين الغربيات بالقرب من المديرية الدكتور الشفيع خضـر زوج شقيقتي إحسان . واستمر الشفيع في المعتقل خمس سنوات متنقلا بين كوبر وشالا. وخرج في انتفاضة ابريل ١٩٨٥.وعندما علم بوجودي قام بزيارتنا فـــي المديرية في الصباح. وكانت مثل هذه الزيارات في الماضي مستحيلة. ولكن يبدو أن الشفيع وطد أقدامه في السجن. وبما أنه طبيب فقد كان يحظي بمعاملة خاصة من الحراس الذين كانوا يحتاجون إلي إرشاداته الطبية. وكانت لديه كميات مـــن الأدوية حصل عليها من الزيارات . فكان يمد حراس السجن بها. وكان المساعد الطبي الصادق يحول إليه بعض الحالات المرضية المستعصية . وعندمـــا تـم ترحيله إلي شالا افتتح عيادة في السجن لعلاج الضبـــاط والجنـــود وعائلاتـــهم والمواطنين حول السجن. فعندما وجدت أن كوبر تحول الي بساط أحمدي قمـت بدوري بزيارته في قسمه. هل يا تري ألفنا كوبر حتي أصبحنـــا نتجـــول فـــي أقسامه؟. لقد كان ذلك التنقل من لقسم لآخر رفاهية كبرى .

وفي إحدى زيارات أسرتي كنت أحمل أصغر بنـــاتي " نـــدي " طوال الزيارة. وكان عمرها ثلاثة سنوات وهي شديدة التعلق بي. وبعد انتـــهاء الزيارة رفضت مفارقتي والعودة مع أهلها وأصرت أن تبقي معـــي . فـــهي لا تدري عن المكان شيئا سوي أن به " بابا "وحاولنا إقناعها أن تعود مرة أخـــرى ،ولكنها رفضت وتشبثت بي أكثر . فلم يكن هناك مفر سوي انتزاعها عنوة وهي تبكي بأعلى صوتها.فكنت وأنا وبنتي كما قال الشاعر جيلي عبد الرحمن-:

كعصفورين مذعورين
كان البين قد قص الجناح

وعدت ذلك اليوم الي السجن وأنا محبط النفس ومشاعري تحتدم في داخلي بعنف " كأن قبرتين ترتطمان في صدري ". وهذه المواقف من أكثر اللحظـــات

ضراما للمشاعر بالنسبة للمعتقلين. ولكن سرعان ما يتغلبون عليها ويجرفهم تيار الحياة اليومي في المعتقل رغم رتابته.

وفي ضحي إحدى الأيام كنت أقدم محاضرتي المعتادة عن " الإمام المهدي " فجاء خبر إطلاق سراحي ولم أكمل المحاضرة. وانقلب المعتقل إلي هتافات مدوية. وودعونا -أبوزيد وأنا -بنفس الصلابة التي استقبلنا بها. ولم أستطع أن أحبس دمعة أمام صمود ذلك الشباب. وكان الاعتقال هذه المرة أسبوعين فقط. لذلك خرجت من السجن لأول مرة وفي النفس بعض الحنين إليه. ورغم قصر المدة إلا أنها أحدثت ارتباكا في حياتنا. وفي الطريق الي جهاز الأمن أبديت تعجبي لأبوزيد من هذا الاعتقال الخاطف. وقلت له سأطلب تفسيرا لأسباب هذا الاعتقال. فلعل هناك أشخاصا يمدون جهاز الأمن بمعلومات خاطئة عنا .

وقابلنا أحد ضباط الأمن وتحدث إلينا حديثا وديا . وقال إن المشكلة انتهت بسلام. نفس الألفاظ التي استعملها اللواء عمر. فقلت له إن المشكلة لم تنته. فهذا الاعتقال رغم قصره قد أحدث أضرارا بالنسبة لأسرنا وعملنا. فهل يتكرم ويوضح لنا أسبابه. فقال إن المكتبة التي نديرها أنا وأبوزيد قد أصبحت ملتقى للشيوعيين. وأن الحزب الشيوعي اتخذها مركزا للمقابلات. وكان رجال الأمن يتوهمون أن المكتبة لها علاقة بالحزب الشيوعي وليست عملا تجاريا نعيش عليه. فقلت له إن كل معارفنا وأصدقائنا إما التقينا بهم في الدراسة أو العمل أو المعتقلات . فلا غرابة إذا زارونا في المكتبة ولا غرابة أن يكون بينهم من ينتمي الي الحزب الشيوعي. وبما أن أعدادا كبيرة من الشيوعيين قد فصلوا من العمل فمن الطبيعي أن يحضروا إلي المكتبة لأنها المكان المناسب الذي يرتاحون فيه. وإذا كان الحزب الشيوعي قد اتخذ من المكتبة مركزا لتصريف بعض أعماله فهو حزب غير مسئول لأن المكتبة أسوأ مكان لمثل هذا النشاط. وإذا كان مجيء الشيوعيين الي المكتبة جريمة تستوجب الاعتقال فليكتب لنا جهاز الأمن خطابا يمنع الشيوعيين من الحضور. وسوف نقوم بتعليق ذلك الخطاب علي الباب، وإذا حضر أحدهم بعد ذلك فنستحق أن نعتقل. وتدخل أبوزيد لينهي الحديث عند هذا الحد. فأضاف الضابط كلاما فيه تبرير واعتذار. فودعناه وانطلقنا الي أهلنا. وكان ذلك آخر عهدي بالاعتقالات علي أيام دكتاتورية نميري.

(١٥) دروس وعبر من الاعتقال

تجربة الاعتقال غنية بالدروس والعبر. فهي تعامل مع إجراء تعسفي قهري ينقل الإنسان من محيط الحياة العادية التي يألفها إلى نمط من الحياة غير مألوف له ويقع خارج المجري العام لحياة الناس. لذلك يتطلب الاعتقال درجة عالية من المرونة والصبر والقدرة علي التكيف. وكثير من المعتقلين يخرجون من الاعتقال وقد اكتسبت شخصيتهم عمقا واتسعت مداركهم رغم أنهم يعيشون بين جدران مغلقة لا سعة فيها. أليس عجبا أن تتسع مدارك الإنسان في مكان مغلق؟ ليس هناك عجب بل هو السر الكامن في تجربة الاعتقال ودروسه.

إن الاعتقال الأول أكثر الاعتقالات مشقة وبالذات الأيام الأولى منه. فالانتقال من دنيا الحرية الي عالم السجن انتقال كبير . فالإنسان لا يدري ما وراء هذا العالم الجديد الذي لا يعرف دروبه ومسالكه ومنهجه، إذ ينقطع فجأة عن نمط الحياة الذي يألفها. وتختلف ظروف المعتقلين في مواجهة تلك التجربة الأولي . بعضهم يقحم فيها دون سابق استعداد، وهذا أخطر مافي التجربة.لأن الإنسان في هذه الحالة يحتاج الي التهيؤ النفسي، ثم التكيف بعد ذلك. ولكن البعض لا يتخطي مرحلة التهيؤ النفسي، فتنهشه شتي الانفعالات المدمرة. وبعض المعتقلين تخدمهم ظروف معينة تحملهم في يسر عبر مسالك تلك المرحلة الأولى من التجربة.

ولابد للمعتقلين من أن يتحلوا بدرجة عالية من المرونة ، ليس مع الأوضاع الجديدة فحسب ، بل مع بقية المعتقلين . فالإنسان في المعتقل يجد نفسه وسط أشخاص لا يكون قد التقي بهم من قبل . كما أن مجال العلاقات الاجتماعية في المعتقل ضيق جدا. وليس هناك من مهرب . والمشقة الكبرى أن دلك الجمع من المعتقلين لا يلقاهم الإنسان لساعات عابرة كما يحدث بالنسبة لأعز الأصدقاء بل حتي بالنسبة لأفراد الأسرة، وإنما يعيش معهم بين تلك الجدران طوال ساعات اليوم. وليس هناك من سبيل للتعايش معهم سوي أن يسعى الإنيسان لينقب عن الجوهر المضيء في كل شخصية ويتعامل فقط مع ذلك الجوهر، ويتناسي ويتحاشي السلبيات. وبهذا تضيء شخصياتهم من حوله ويشرق السجن أمام عينيه.أما إذا سعي لغير ذلك فانه يرتاد مسلكا وعرا ويتردي الى درك أسفل بئيس. كما يستوجب علي المعتقل أن يقهر سلبياته ليفتح للآخرين

طريقا سالكا للتعامل معه.

وللإعتقال أمد ينتهي فيه. فليس هناك اعتقال أبـــدي ومؤبـــد.ولكـــن الإنسان لا يدري متي ينتهي الاعتقال، وهذا جانب المشقة فيه. بل إن عدم تحديد المدة أمر مقصود من أجل خلق إحساس مستمر بالقلق لدي المعتقل . فإذا تـــرك المعتقل العنان لهاجس الإفراج ، فان ذلك الهاجس يركبه ويقلق راحته. أمـــا إذا قهر ذلك الإحساس وجاهد نفسه ووطنها علي البقاء فان الاعتقال يسهل كثـــيرا. فإذا جاء الفرج يكون تتويجا لمقدرة الإنسان في التعامل مع السجن . والإفـــراج لابد آت.

إن من أوجب المهام بالنسبة للمعتقل هو تنظيم وقته، حتي لو كـــان فـــى زنزانة انفرادية. وإذا كان تنظيم الوقت مهم في الحياة العادية فأنه يصبح أكـــثر أهمية في السجن. فهو يقتل الملل ويقهر الوحدة والانغلاق. ويختلف تنظيم الوقت من سجن لسجن ومن أوضاع لأخرى ومن شخص لآخر. ولكن مهما كانت تلـك الاختلافات ، فإن تنظيم الوقت هو المفتاح لفترة اعتقال لها جدواهـــا. ولا يتـــم تنظيم الوقت لمجرد تبرئة الذمة ، وإنما لتصبح فترة الاعتقال مثمـــرة ، فـــيرتفع الإنسان بقامته فوق ظروفها القاسية. ولا يجدي الاعتذار بالظروف غير الطبيعية والظروف الاستثنائية. فالمطلوب أن يشق الإنسان طريقه عبر تلـــك الظـــروف والأوضاع، ويستغل الإمكانات المتاحة لأبعد مدي.

ويوفر الاعتقال فرصة فريدة لخلق صداقـــات حميمـــة ســـوي مـــع المعتقلين أو الحراس أو حتي السجناء. فهنا يمكـــن للإنســـان أن يســـبر غـــور الشخصيات في ظروف لا تتوافر له في الحياة العادية . وقد أشار " الكودة " فـــي كتابه سالف الذكر إلى تجربة عبد الخالق محجوب عندما كان معتقلا في مصنـــع الذخيرة بين نوفمبر ١٩٧٠ ويونيو ١٩٧١ ، حيث استطاع أن يخلـــق صـــلات حميمة مع الجنود الذين كانوا يتولون حراسته. وهناك قصة الشفيع أحمد الشـــيخ عندما كان مسجونا عام ١٩٥٣ بعد إضراب البوليس الشهير . فالتقي في السجن مع محجوب حمد وكان مسجونا في قضية غير سياسية . ونشأت بينهما صداقـــة تحول بعدها محجوب من مجرد سجين عادي إلى لشخص له اهتمامات سياســـية واسعة. وكان محجوب معنا في كوبر عام ١٩٧١ ، وحكي عن قدرة الشفيع فـــي كسب الناس لتلمسه للجوانب التي يمكن أن يتعامل بها معهم.

وللاعتقال مخاطره. فهو يدمر الصحة ، نسبة لظروف السجون التي لا تكتمل فيها الاستعدادات الصحية. وهناك عدد من المعتقلين لقـــوا حتفـــهم فـــي

السجن. وقد عاصرت تجربة الأستاذ عبد المنعم سلمان . فقد كان يعـــاني مـــن أمراض خطيرة . واطلعت علي التقرير الذي كتبه له الأطباء بضرورة سفره الي الخارج للعلاج. ولكنه بقي في المعتقل حتي فارق الحياة. وبعض المعتقلين خرج من السجن بمرض سرعان ما أودى بحياته ، مثل قاسم أمين الذي أصيب بنوبــة قلبية وأحمد فضل المولي الذي أصيب بفشل كلوي ، وكان أحمد أســد القلــب . والأمثلة كثر. ولعل تدمير صحة الإنسان هو أحد أسباب الاعتقال

ويؤدي الاعتقال الي اضطراب الحياة الأسرية والي تدميرها أحيانــا. كما أن انشغال المعتقل بظروفه الأسرية يؤثر عليه إذا أصبح شـــغله الشــاغل. ولذلك لابد أن ينسي الشخص ما يحدث في الخارج ويقطع صلته الذهنيـــة بـــه. وعندما يطلق سراحه يقوم بالتصدي للمشاكل التي طرأت.

إن الاعتقال إجراء تعسفي إجرامي مهما كانت التبريرات والمســوغات التي تساق له. وهو يدمر طاقات المجتمع . فلا غرو إذا وضعت له المجتمعــات المتحضرة ضوابط وقيود تحافظ علي آدمية الإنسان. لهذا تصدرت قضية حقـوق الإنسان أجندة عصرنا

المحتويات

تقديم ٥

(١) الصدمة الأولى ٧

(٢) سجن كوبر : التجربة الأولى ١٣

(٣) وعدنا إلى كوبر ٢٣

(٤) التركيب السكاني الجديد لسجن كوبر : يوليو - ١٩٧١ ٢٨

(٥) وجه كوبر الكالح ٣٤

(٦) وكسرنا الحاجز وثبتنا فى مستنقع الردة ٤٦

(٧) وجاء الأطباء .. جاء الأطباء ٦٢

(٨) الإعتقال خارج كوبر : مستشفى الخرطوم بحرى والسلاح الطبي ٦٧

(٩) العودة إلى كوبر ... والعود أحمد ٧٢

(١٠) الخروج من المعتقل ٧٩

(١١) كروان السجن الصداح ٨١

(١٢) أسبوعان فى سجن كسلا ٩٣

(١٣) العودة إلى كوبر بعد طول غياب ٩٦

(١٤) عودة أخرى إلي كوبر ١٠٣

(١٥) دروس وعبر من الاعتقال ١٠٧

رقم الايداع
٩٨ / ٣٤٧١
ترقيم دولى I.S.B.N
977-19-5505-5

الشركه العالميه للطباعة والنشر

القاهرة - الخرطوم

تفخر الشركه العالميه للطباعة والنشر ان تقدم للقارى الكريم كتاب " كوبر ذكريات معتقل سوداني في سجون السودان" للمؤلف دكتور محمد سعيد القدال.

اما الكاتب فهو احد رموز كتاب التاريخ في السودان وهو من اهم وابرز من كتبوا في تاريخ السودان قديمه وحديثه له مؤلفات عديدة علّ القارىء يذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر "الاسلام والسياسة في السودان وتاريخ السودان الحديث وتاريخ المهدية - الامام المهدي. السياسة الاقتصادية للدولة المهدية . المهدية والحبشة." وهذا ابرز ما كتبه المؤرخ دكتور القدال.

ان الشركة العالمية للطباعة والنشر تقدم هذا الكتاب والكاتب.

تهتم بنشر كل التجارب والافكار الانسانية وتهتم بنشر ما يصلها من الكتاب والأدباء السودانيين في الداخل والخارج . كما تقوم بتوزيع كل التراث الفكري والإنسانى لكل المبدعين في كافة انواع الإبداع.